الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

كلية العلوم الاجتماعية

شعبة الفلسفة

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في الفلسفة تخصص فلسفة عامة

إشكالية اللاهوت والسياسة لدى سبينوزا

دراسة في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة

إعداد الطالبة:

شقراني صابرينة

إشراف الأستاذة:

د. بداني حسنية

السنة الجامعية: 2025/2024

الإهداء

حمدا لبارئ الأنام ثم الصلاة والسلام ما ناح في دوح الحمام على الرسول العربي و آله وصحبه و من تلا من حزبه سبيله في حبه على ممر الحقب.

الحمد لله الذي ما ضيّع لي تعبًا، ولا خيّب لي سعيًا، ولا نقص لي مجهودًا، ولا ثبّط لي حلمًا.

الحمد لله الذي كان معي، ولا يزال، في كل سعيٍ نحو النور، وفي كل خطوةٍ على درب النجاح.

أما بعد...

ها أنا أقف على مشارف الحلم، أقطف أولى ثمار السعي الطويل، بعد أعوام من التعب، والمثابرة، والسهر، واليقين بأن ما كان يومًا حلمًا... يمكن أن يكون حقيقة.

أنا اليوم أُهدي هذا الإنجاز:

إلى جدّي الحبيب، طيّب الله ثراه، ورحم روحه الطاهرة،

الذي كان دعمي الأول، وحبيب روحي،

والذي كانت دعواته لي ومساندته الدائمة، أضاء لي

كل لحظة في دربي.

إلى من غرس في قلبي حبّ العلم، ومنحني الحنان بلا حدود،

إلى أمي، يا من حملتني حبًا، واحتملتني صبرًا، يا حضنًا لا يشيخ، وصوتًا لا يغيب، أهديك كل نبضة فخر في هذا العمل، فأنتِ البداية والغاية.

أبي الذي لم ينجبني، لك يا من كنت الأبَ حين غاب الاسم، منحتني العطف دون شرط، والسند دون دم، أهديك هذا الجهد عرفانًا، فأنت من رسم ملامح الأمان في قلبي.

إلى أبي الذي أنجبني، رغم البعد، يبقى لك مكان في قلبي، حضورك رغم غيابك، جزء من قصتي ومن حياتي أهديك هذا العمل بكل احترام وود، وشكرًا لأنك كنت بداية لي في هذه الدنيا.

وإلى من كان لي سندًا حين مالت بي الطرق، ورفيقًا في كل دروب التحدي،

إلى أيمن... الامتنان لك لا يُكتب، والفخر بك لا يُوصف، والدعاء لك لا ينقطع.

وإلى أختي الغالية... نعم الرفيقة والداعمة،

شكرًا لأنك كنتِ قريبة في كل لحظة، وشاركتِني هذا الحلم بصبرٍ ومحبّة.

إلى إخوتي الذين كانوا دومًا مساندين لي، وملجأ في كل صعوبة،

وإلى عائلتي العزيزة التي وقفت بجانبي بكل حب، واحتضنتني بكل دعم لا ينتهي.

إلى كل من رافقني ولو بكلمة طيبة، إلى من زرعوا في قلبي الأمل،

أُهديكم هذا العمل، وهذا الحلم المتحقق... عربون محبة ووفاء وامتنان،

وحروفًا من نور كتبتها الأيام.

شكر وعرفان

لا يسعني، وأنا أضع نقطة الختام لهذا الجهد العلمي، إلا أن أتقدّم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لكل من كان له دور في دعمي ومساندتي خلال مسيرتي البحثية، ولكل من مدّ لي يد العون، ورافقني بكلمة، أو توجيه، أو دعمٍ صادق.

وفي مقدّمتهم، أخص بالذكر الأستاذة الدكتورة بداني حسنية، التي كان لإشرافها الرصين، ومتابعتها الدقيقة، وتوجيهاتها السديدة، بالغ الأثر في إخراج هذا العمل إلى النور. فلها مني كل التقدير والدعاء بأن يجزيها الله عني خير الجزاء، وأن يبارك في علمها وعمرها.

و أتقدّم بخالص عبارات الشكر والامتنان إلى كل الأساتذة الذين ساندوني خلال مساري الجامعي، وخصّوني بتوجيهاتهم القيّمة ونصائحهم العلمية التي كان لها الأثر البالغ في إثراء هذا العمل. لقد كان لدعمهم وتشجيعهم دورٌ أساسي في تخطي الصعوبات الفكرية والمنهجية التي واجهتني أثناء إنجاز هذه المذكرة، فكل التقدير والامتنان لهم على ما بذلوه من جهد وعطاء

.

ولا أنسى أن أتوجّه بشكر خاص وعميق إلى صديقاتي العزيزات، رفيقات الدرب والكلمة الطيبة، من تقاسمن معي التعب والفرح، وكان لحضورهن الجميل وقعٌ خاص في كل مراحل هذا المشوار.

وأخيرًا، خالص الدعاء لكل من آمن بي، ووقف إلى جانبي في رحلتي العلمية والإنسانية.

مقدمة

"ليس الغرض من الدولة تحويل الناس من كائنات عاقلة إلى كائنات مطيعة، بل تمكينهم من استخدام عقلهم بحرية وأمان."

باروخ سبينوزا – رسالة في اللاهوت والسياسة

مقدمة:

يُعد كتاب رسالة في اللاهوت والسياسة للفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا من أبرز المؤلفات الفلسفية التي أثارت جدلاً واسعًا في الفكر الغربي الحديث، نظرا لما يطرحه من قضايا تتعلق بعلاقة الدين بالسياسة، وحدود العقل والإيمان، وحرية التعبير، وهي قضايا لا تزال تحتفظ براهنيتها إلى اليوم. إن قراءة هذا الكتاب لا تقتصر على البعد اللاهوتي أو السياسي، بل تنفتح على مشروع فلسفي متكامل يسعى إلى تأسيس رؤية عقلانية للعالم والدولة والدين، تحرّر الإنسان من الخوف والخرافة، وتضع العقل في مركز بناء الحياة العامة.

لقد جاء اختياري لهذا الموضوع بدافع مزدوج ذاتي وموضوعي ذاتيا، لأنني لطالما شغفت بالفكر الفلسفي الذي يُعيد مساءلة المسلمات، ويبحث في الجذور العميقة للسلطة والمعنى. وموضوعيا، لأن هذا العمل يُعد مرجعا فلسفيا أساسيا في فهم العلاقة المعقدة بين الفكر الديني والسياسي، ولأن سبينوزا يمثل مرحلة انتقالية حاسمة في تاريخ الفلسفة الغربية، حيث تبلورت الحداثة في بعدها النقدي والعقلاني.

انطلاقا من ذلك، فإن الإشكالية المركزية التي توجه هذا البحث تتمثل في:

هل الخلط بين اللاهوت والسياسة يؤدي إلى الاستبداد؟ وهل أن الفصل بينهما ضروري لضمان حرية الفكر واستقرار الدولة؟

لتحليل هذه الإشكالية، تم اعتماد المنهج التاريخي لتتبع السياقات الفلسفية والاجتماعية والدينية التي نشأ فيها سبينوزا، والمنهج التحليلي لفهم البنية المفاهيمية والفكرية للكتاب، وتفكيك أطروحاته الأساسية.

جاء هذا البحث موزعا على فصلين رئيسيين:

سعيت من خلالهما إلى معالجة إشكالية العلاقة بين اللاهوت والسياسة في فكر باروخ سبينوزا الفصل الأول كان بعنوان الإطار التاريخي والفكري لفلسفة سبينوزا".

وقسمته إلى مبحثين تناولت في المبحث الأول السياقات الفلسفية والاجتماعية التي نشأ فيها سبينوزا، حيث عرضت حياته ونشأته، ثم أبرزت مكانته في تاريخ الفلسفة الحديثة، وتطرقت إلى السياقات السياسية والاجتماعية والدينية لهولندا في القرن السابع عشر، مع بيان أثر هذه العوامل على تشكل فكره، خاصة فيما يتعلق بموقفه من اليهودية والمسيحية. أما المبحث الثاني، فقد خصصته لتحليل المفاهيم الأساسية في فكر سبينوزا، مثل مفهوم اللاهوت، والعقل، والسياسة، والحرية والحق، والسلطة، مع التركيز على نقده للحكم الثيوقراطي وموقفه من الخلط بين الدين والدولة. أما الفصل الثاني، فجاء بعنوان قراءة في كتاب رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، وقد قسمته بدوره إلى مبحثين خصصت المبحث الأول لقراءة شكلية ومضمونية للكتاب، حيث عرضت بنيته الخارجية، ثم تناولت الإشكالية التي يعالجها، والفكرة العامة، وقمت بتقسيم محتواه إلى أربع وحدات فكرية كبرى من النبوة إلى الشعائر، المعجزات ونقد الأسفار، العقل والإيمان، ثم الدولة والحرية. أما المبحث الثاني، فقد خصصته للقراءة الفلسفية للكتاب، حيث تتبعت أبرز أفكار سبينوزا كما وردت في الفصول، وأبرزت نقده الجذري للتصورات الدينية التقليدية، وسعيه لتأسيس فهم عقلاني للدين، يضمن حرية الفكر ويمهد لقيام دولة مدنية عقلانية.

في سياق إعداد هذه المذكرة، تم الاعتماد على مجموعة من الدراسات السابقة التي تناولت فكر باروخ سبينوزا من زوايا متعددة، وأسهمت بشكل ملحوظ في إثراء الجانب التحليلي وتعزيز البعد النقدي لهذا البحث من بين أبرز هذه الدراسات رسالة الدكتوراه للباحثة بن سعدية سعاد بعنوان إشكالية الدين والسياسة في الفلسفة الغربية الحديثة (2016-2017)، التي وفرت خلفية نظرية مهمة حول الإطار العام للعلاقة بين الدين والسياسة في الفلسفة الحديثة. كما استفدت من مذكرة الماجستير للباحثة رحالة عباسية المعنوَنة بالحرية والسلطة السياسية في فلسفة سبينوزا (2014-2015)، لما تضمنته من تحليل دقيق لنقد سبينوزا للعقل الديني وتوضيح للمفاهيم الأساسية التي يقوم عليها مشروعه الفلسفي. كذلك، ساهمت مذكرة الماستر

للباحثتين ليس صـــوفية وطيار نور الهدى بعنوان الفلســفة الســياســية عند باروخ ســبينوزا (2023-2024) في إغناء الجانب الســياســي للبحث من منظور معاصــر، إلى جانب مذكرة الماستر للباحثة ابتسام زروقي الموسومة بـــــ السلطة الروحية والسلطة السياسية عند باروخ سبينوزا (2019-2020)، والتي عالجت الإشكال المحوري للعلاقة المعقدة بين الدين والسياسة في فلسفة سبينوزا.

وقد شـكلت هذه الأعمال أرضـية معرفية صـلبة أسـهمت في بناء الإشـكالية وتوجيه التحليل ضمن إطاره التاريخي والفلسفي الدقيق.

غير أن مسـيرة البحث لم تخل من صـعوبات، فالعقبة التي واجهتها لم تكن في ندرة المراجع بل على العكس توفرت عدة مصـادر ومراجع حول الإشـكالية. لكن التحدي الحقيقي كان في إيجاد زاوية جديدة يمكن من خلالها الإضـــافة أو تقديم قراءة مختلفة؛ إذ شـــعرت في بعض الأحيان أن أغلب الأفكار الأساسية قد تم تناولها سابقًا، فكان من المهم أن أشتغل على إعادة ترتيب المعطيات وتحليلها بأسلوبي الخاص.

إن هذا العمل ليس محاولة لإعطاء إجابات نهائية، بقدر ما هو دعوة لإعادة التفكير في مفاهيم نعتقد أحيانا أننا نفهمها، بينما تظل مشحونة بموروثات اللاهوت والسلطة.

الفصل الأول

الإطار التاريخي والفكري لفلسفة سبينوزا

مدخل:

تعد فلسفة باروخ سبينوزا واحدة من أعمق التيارات الفلسفية في تاريخ الفلسفة الغربية. في عالم الفكر الفلسفي، يظهر سبينوزا كمفكر قديم كان له دور أساسي في تشكيل مبادئ الفكر العقلاني وتطوير مفاهيم جديدة تخص الإنسان والدين والسياسة. في هذا الفصل، سوف نتناول السياقات التاريخية والفكرية التي أسهمت في تشكيل أفكار سبينوزا، بدءًا من السند الفلسفي والإجتماعي الذي نشأ فيه إلى التحليل الفلسفي للمفاهيم الأساسية التي تناولها في أعماله.

سنتناول السياق الذي نشأ فيه سبينوزا من خلال مناقشة الجوانب الفلسفية، الاجتماعية، والسياسية التي شكلت خلفيته الفكرية؛ هذه السياقات ساهمت في تطوير رؤيته الثورية، والتي أثرت في العديد من الفلاسفة بعده. كما سنتطرق إلى أهم المفاهيم التي طرحها في عمله الفلسفي من خلال عرض بعض المفاهيم الجوهرية مثل: اللاهوت والعقل والدين، بالإضافة إلى تحليل العلاقة بين السياسة والحرية في فكره، وكذلك تأثير هذه الأفكار على العالم السياسي والديني.

المبحث الأول

السياقات الفلسفية والإجتماعية

أولا: باروخ سبينوزا وأهميته الفلسفية:

- حياته ونشأته:

شهد القرن السابع عشر تحولات عميقة في أوروبا على المستويات الدينية والسياسية والفكرية، فكان قرن التوترات بين سلطة الكنيسة وبوادر العقلانية الحديثة وفي ظل هذا المناخ المضطرب، ظهرت أصوات فلسفية سعت إلى تجاوز الإكراهات الدينية، والدعوة إلى تحرير الفكر والإنسان من التسلّط اللاهوتي من بين هذه الأصوات يبرز اسم فيلسوف ترك أثرًا عميقًا في الفكر الحديث، سواء من خلال مشروعه النقدي أو من خلال مواقفه الجريئة تجاه الدين والسياسة، وهو باروخ سبينوزا؛ "ولد في امستردام في 24 تشرين الثاني (1632م)، ومات في لاهاي في 20 شباط (1677م)، لم تعرف حياته أحداثاً كثيرة ، بل قضاها جلها في الدرس والتأمل ويتحدر سبينوزا من أسرة من اليهود البرتغاليين ، وقد هرب جد الفيلسوف وأبوه (إبراهيم وميخائيل) من الاضطهادات الدينية ، ووصلا إلى أمستردام سنة (1593م) وبالفعل كان اتحاد اوتريخت قد رسم ، منذ عام (1579م)، اي أن كل مواطن سيكون حراً في أن يقيم على دينه ."[1]

وتشير الوثائق التاريخية إلى أن سبينوزا واصل عمله في مجال التجارة حتى عام (1656م)، ويرجّح أنه اشتغل بتجارة التوابل، قبل أن يتحوّل إلى مهنة شاقة تمثلت في صقل عدسات النظارات والمجاهر والمقارب.

ورغم قسوة هذا العمل وما سبّبه له لاحقًا من تدهور صحي نتيجة استنشاق غبار البلور، إلا أنه برع فيه وتميّز بحذقه وخلال هذه الفترة، بدأ سبينوزا ينسج علاقات خارج محيطه الديني، فكان يتردد على أوساط مسيحية منذ أن كان شابًا، وتعرّف

[1] جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة بيروت، ط3، 2017، ص359.

على شخصيات بارزة من المفكرين الأحرار والتجار المتأثرين بالفكر الديكارتي أو المنتمين إلى شيعة المجمعيين البروتستانت، ومن بينهم: (ديفريز، وبيتر بالينغ، ولودفيك ماير، إلى جانب فان دن إندن)، الذي كان له أثر بالغ في تكوينه وبفضل ذكائه واطلاعه الواسع، اِلتفّ حوله عدد من الأتباع الذين وجدوا فيه مرشدًا فكريًا يحمل مشروعًا فلسفيًا جديدًا، وربما تصورًا دينيًا مختلفًا. فقد قرأ ديكارت وتأثر ببعض أفكاره، غير أن مصادر تغذيته الفكرية الأعمق كانت تكمن في التراث اليهودي نفسه، خاصة لدى مفكرين مثل: جر سونيدس، وابن عزرا، والمتصوفة اليهود، وكرسكاس، حيث وجد في كتاباتهم نقدًا للمعجزات والنبوءات، وتقديمًا للعقل على الوحي، ونظريات عن المادة والامتداد تخالف العقائد التقليدية.

كل هذا جعل موقفه داخل الجالية اليهودية صعبًا، إذ نظر زعماؤها إلى أفكاره بعين الريبة، واعتبروا صداقاته وتعاليمه تهديدًا لتقاليدهم، فبدأت المراقبة والتقريع، وانتهى الأمر في 27 تموز (1656م) بإصدار قرار الحرم بحقه، وهو أقسى أشكال الإدانة، حيث لُعن باسم –الله–في السماوات والأرض.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل حاول أحد المتعصبين اغتياله، إلا أن الضربة لم تصبه، ولم تمزق ثوبه فقط، "ولسوف يحتفظ طوال حياته بذلك الثوب المخروق. وبعد الحرم الذي أنزل بسبينوزا على رؤوس الأشهاد أمضى فترة من الزمن في اوفركيرك، جنوبي امستردام: ثم قفل راجعاً إلى مسقط رأسه حيث أقام إلى عام (1660م)"[1]، بعد أن أُقصي من جماعته الدينية لم يتراجع سبينوزا، بل توجه بإرادة راسخة نحو محيط جديد، منفتح على الفكر والتأمل وبفضل إتقانه للغة العبرية ومعرفته العميقة بالنصوص المقدسة لقي ترحيبًا من بعض الأوساط المسيحية، خصوصًا تلك التي كان الكتاب المقدس محور إيمانها وتأملها. وفي عام (1660م)،

[1] جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مرجع سبق ذكره، ص359.

انتقل للإقامة في قرية رينسبورغ القريبة من لايدن والتي كانت تُعدّ مركزًا لأتباع شيعة المجمعيين عاش هناك في بيت أحد الجراحين وكرّس وقته للتعليم والتأليف.

ومن هذه المرحلة، بدأت تظهر أولى بوادر مشروعه الفلسفي، حيث دُوّنت مجموعة من أعماله الأولى مثل: "مبادئ فلسفة ديكارت مبرهنة بطريقة هندسية"، و"تأملات ميتافيزيقية"، و"رسالة في الله والإنسان وسعادته"، وقد نقل هذه النصوص أحد تلامذته وراجعها سبينوزا بنفسه، كما شرع في كتابة مؤلفه غير المكتمل "إصلاح العقل"، ثم بدأ عام (1662م) بمخطوطته الأولى في كتاب "الأخلاق" قبل أن يتخلى عنها، ليعود مجددًا في أوائل عام (1663م) إلى تحرير المقالة الأولى منه، مستخدمًا الأسلوب الهندسي الصارم الذي سيصبح سمةً مميزة لفكره.

وفي يونيو من نفس العام، غادر رينسبورغ واستقر في فوربورغ، قرب لاهاي، وهناك واصل العمل على كتابه الأهم "الأخلاق"، إلى جانب مهنته في صقل العدسات. وبمرور الوقت، بدأت كتاباته تثير الانتباه وتدرج ضمن قائمة الكتب الممنوعة، ليس فقط لدى الحاخامات، بل أيضًا لدى القساوسة الكالفنيين، مما يدل على الأثر العميق الذي بدأت تتركه أفكاره في الأوساط الدينية والفكرية على حدّ سواء.

ومع هذا، فقد بدأت معالم شهرته الفلسفية تتبلور، وأصبح اسمه يتردد في الأوساط التي تهتم بالفكر والعقل والنقد،" كما تشهد على ذلك مراسلاته: فقد تبادل الرسائل مع الفيلولوجي المشهور فوسيوس، ومع كرستوف هويغنز، مخترع الساعة الدقاقة ونظرية الضوء التموجية، ومع أولدنبورغ، كاتم سر الجمعية الملكية في لندن. وفي عام (1665م) كان سبينوزا يوشك أن ينجز كتاب الأخلاق لكن الفيلسوف توقف بغتة عن تحريره، وانصرف إلى كتابة الرسالة اللاهوتية السياسية "[1].

[1] جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مرجع سبق ذكره، ص 360.

وربما لم يكن من دور لهذه الرسالة على أي حال،" غير أن تهيىء الجمهور والسلطات معاً الصدور الأخلاق القريب: وبالفعل، يستند سبينوزا في تلك الرسالة إلى نصوص مستمدة من العهد القديم ليقول باستقلال السلطة العامة عن الكهنة مما يبرر حرية التفلسف"[1].

في عام (1670م)، غادر سبينوزا فوربورغ ليستقر نهائيًا في لاهاي، المدينة التي سيقضي فيها سنواته الأخيرة. وهناك، عاد إلى الإشتغال بتركيز على كتابه "الأخلاق"، مدركًا في قرارة نفسه أن هذا العمل الجوهري قد لا يُنشر في حياته. وكان قد طبع قبل ذلك "الرسالة اللاهوتية–السياسية"، التي أثارت ضجة كبيرة وهجومًا شديدًا في مختلف أنحاء أوروبا، مما اضطره إلى التوقف مؤقتًا عن مشروعه الفلسفي.

وفي عام (1672م)، دخلت هولندا مرحلة اضطراب سياسي خطير، بعد اجتياحها من طرف قوات لويس الرابع عشر، حيث تم اغتيال الأخوين دي ويث على يد الغوغاء، وهما من الشخصيات الليبرالية التي طالما دعمت سبينوزا وحمته. وقد ترك هذا الحادث أثرًا عميقًا في نفسه، حتى إنه حاول أن يعلق إعلانًا احتجاجيًا في الشارع يبدأ بعبارة "آخر أفعال الهمجية"، لولا أن أصدقاءه حالوا بينه وبين ذلك.

وفي السنة التالية بينما كانت القوات الفرنسية لا تزال متمركزة في أوتريخت، تلقى سبينوزا دعوة من الأمير دي كونديه قائد الجيش الفرنسي، الذي أراد التواصل مع الليبراليين الهولنديين، فتوجه سبينوزا رغم المخاطر إلى معسكر الجيش لكنه لم يتمكن من لقاء الأمير لغيابه، وعند عودته إلى لاهاي، كاد يتعرض للقتل من طرف الجماهير الغاضبة.

[1] جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مرجع سبق ذكره، ص360.

وفي ذات العام، عرضت عليه جامعة هايدلبرغ منصبًا لتدريس الفلسفة، إلا أنه رفض العرض بأدب، مفضلًا الحرية الفكرية التي كان يتمتع بها على أي امتياز أكاديمي قد يقيّده أو يحد من استقلاليته، "بعد عام (1673م) عرف سبينوزا نهائياً عن كل نشاط عام، وانصرف إلى إنجاز كتاب الأخلاق، فكان تمامه في عام (1675م) وقدم أصدقاء ومعجبون لرؤيته في لاهاي: ليبراليون وفلاسفة وعلماء ومنهم لايبنتز، وكان سبينوزا يعد آنئذ مصلحاً للفلسفة الجديدة، وللدين التقليدي وسياسياً مقداماً في آن معاً وآخر مؤلف صممه وشرع بتحريره كان الرسالة السياسية التي جددت الهجوم على التعصب وعدم التسامح. ومات سبينوزا عن أربعة وأربعين عاماً، في 20 شباط (1677م)، [نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، مارسيالغيرو]"[1]، كان لطيفاً للغاية وطيب المعشر، وكان كثيراً ما يكلم خدم المنزل إذا ما أصابهم كرب أو مرض ...إلخ.

- أهمية سبينوزا الفلسفية:

يُعتبر سبينوزا أحد أبرز المفكرين في تاريخ الفلسفة الغربية، إذ أثرت أفكاره بشكل عميق في مختلف فروع الفلسفة مثل الفلسفة السياسية، الميتافيزيقا، والأخلاق من خلال رؤيته الفكرية المعقدة، كان سبينوزا يؤمن بأن الحقيقة يمكن أن تكون عقلانية، أي أنها يجب أن تتوافق مع العقل الإنساني، وبهذا كان يرفض كل التفاسير الغيبية للأشياء. حيث أن أهميته تتجلى في كونه أحد رواد الفلسفة العقلانية الحديثة، حيث ركز على فكرة وحدة الوجود، التي اعتبر فيها أن الله والطبيعة شيء واحد لا يتجزأ. هذا المبدأ كان ثوريًا في زمانه، خصوصًا في وقت كان فيه الدين المسيحي يحكم الكثير من مفاهيم الناس حول الله والعالم.

[1] جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مرجع سبق ذكره، ص360

ويُعدّ من بين الفلاسفة الذين انشغلوا بتأويل النصوص والكتب المقدسة في عصره، "فهو كان يسير على طريق المنهج الديكارتي الذي يتميز بالبداهة والوضوح في تأويل الكتاب المقدس ويعتبر التأويل فعل دائم الارتحال فهو يجوب أغلب المجالات والحقول المعرفية وسبينوزا بدوره مارس التأويل على النصوص الدينية للكتاب المقدس وهذه التأويلات جاءت ردا ونقدا على تأويلات اللاهوت الزائفة والمحتكرة للعقل والطبيعة"[1]

اشتهر سبينوزا بآرائه المتحررة والمتطرفة في مجالي الدين والسياسة، مما جعل ليبنتز، بطموحه الحذر وحرصه على سمعته، يسعى إلى تجنب أي ارتباط علني به لذلك بذل جهده لإزالة أي إشارة لعلاقته بسبينوزا من كتاباته المنشورة، باستثناء بعض الإنتقادات الحادة التي لم تكن تثير الشبهات حوله. وبلغ به الحذر أن أخفى معرفته بمؤلف "الرسالة اللاهوتية السياسية" عن العديد من مراسليه، بمن فيهم المنطقي أرنولد، خاصة وأن هذا الكتاب واجه هجوماً عنيفاً من الأوساط الدينية، شارك فيه بعض أساتذة ليبنتز نفسه. لذا، طلب من صديقه المشترك، شولر، أن يعمل على عدم ذكر اسم سبينوزا في مؤلفاته المختلفة، بل وحذف أي إشارة إليه من رسائله قدر الإمكان.

سبينوزا لم يتوقف عند الفلسفة الطبيعية والميتافيزيقية، بل طرح أيضًا إسهامات كبيرة في الفلسفة السياسية، حيث نادى بفصل الدين عن السياسة، وهو موقف جديد آنذاك ويمثل قطيعة مع التفاسير التقليدية التي كانت تجعل من الدين أداة لضبط النظام السياسي والإجتماعي، في كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة"، انتقد سبينوزا استخدام رجال الدين لمفاهيم مثل الإله والنبوة لتحقيق سيطرتهم على الناس. كما أنه اعتبر أن الدولة لا ينبغي أن تعتمد على العقائد الدينية في تنظيم حياة الأفراد.

[1] ابتسام زروقي، السلطة الروحية والسلطة السياسية عند باروخ سبينوزا، مذكرة ماستر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، إشراف رياض طاهير،2019-2020، ص2.

يعتبر سبينوزا فيلسوفًا عقليًا يتبنى المنهج الرياضي (هندسي)* له نزوع وأثره وبصمته في تاريخ الفكر البشري، وتتجلى هذه الأهمية وهذه الخطورة في مؤلفاته المتعددة والقيمة، حيث عرض فيها المسائل فلسفية ودينية وسياسية دقيقة وعميقة. وعلى الرغم من أن سبينوزا لم يعمر طويلاً، أيضًا أنه عاش مضطهدا منبوذا من بني جلدته من اليهود، نتيجة ثورته على مبادئهم ونمط حياتهم ولاهوتهم المزور، فإنه ترك مؤلفات تنم عن فكر نقدي ثاقب وعلم غزير، وثبات في الموقف لا يضاهى.

ومن أهم هذه المؤلفات إلى جانب رسالته حول مبادىء فلسفة ديكارت التي أشرت إليها سابقا نجد:

- أعماله وتأثيره على الفلسفة الحديثة:

لا يمكن الحديث عن فلسفة سبينوزا دون الإشارة إلى مؤلفاته الرئيسية، مثل "إيتنا" (Ethica)، الذي يعتبر من أهم الأعمال الفلسفية في تاريخ الفكر الغربي. هذا الكتاب الذي كتبه على شكل مقاطع منطقية مترابطة، يعرض فيه سبينوزا رؤية ميتافيزيقية وعقلانية عن الله والطبيعة، متمسكًا بفكرة أن كل شيء في الكون مرتبط ببعضه، وأن الله ليس كائنًا منفصلًا عن العالم، بل هو الوجود ذاته. من خلال هذا العمل، أعاد سبينوزا تعريف الفهم التقليدي لله والعالم، مما جعله هدفًا للهجوم من قبل رجال الدين والفلاسفة المحافظين، لكنه أثار أيضًا إعجاب عدد من المفكرين مثل: هيغل وكانط الذين تأثروا بأفكاره.

المنهج الهندسي هو منهج استخدمه سبينوزا في دراسته للكتاب المقدس يقوم على عرض القضايا والبرهنة عليها واستخلاص النتائج أي أنه يقيم فكره على أساس رياضي في المقام الأول. **انظر:** فؤاد زكرياء سبينوزا، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 1998 ص 38*

حيث أن سبينوزا "هو الوحيد من طبق منهج ديكارت في السياسة، فدرس أنظمة الحكم، وقارن بينها، ونقد الأنظمة التسلطية القائمة على حكم الفرد المطلق"[1]؛ توصل إلى أن النظام الديمقراطي هو الأكثر توافقًا مع العقل وقوانين الطبيعة، حيث أكد على أن هذا النظام يسمح بتكامل الحرية الفردية مع مصلحة المجتمع ككل. في هذا السياق، كان سبينوزا يختلف عن ديكارت الذي استثنى النظم السياسية والتشريعات الإجتماعية من دائرة الشك التي طرحها، حيث اعتبر أن تلك الأمور لا يجب أن تخضع للتفكير النقدي العميق مثلما خضع الفكر. هذا التوجه دفع سبينوزا إلى طرح فكرة أن العلاقة بين الفكر والسياسة أو الدين والدولة يجب أن تكون مبنية على أسس عقلانية وواقعية. بذلك أصبح سبينوزا سبّاقًا على مفكرين مثل كانط وهيجل، اللذين تناولا مسائل مشابهة متعلقة بفصل الدين عن الدولة، من خلال سعيهما لتحديد كيفية التفاعل بين الفكر والمجتمع. في المقابل، كان مفكرون آخرون مثل مالبرانش وباسكال يميلون إلى مقاربة لاهوتية أكثر تقليدية، حيث ركز مالبرانش على نشر المسيحية حتى إلى أقاصي الأرض، بينما ارتبط باسكال بالتركيز على الملكوت السماوي ورفض الاهتمام بالسياسة الأرضية، أما ليبنتز، فقد اتخذ مسارًا مغايرًا وركز على إيجاد روابط عقلية وفلسفية بين الشرق والغرب من خلال مشاريع استعمارية ورؤى غير واقعية مثل غزو مصر، مما يعكس انشغاله بالمفاهيم المجردة والتجريبية مثل حساب التفاضل والتكامل وحساب الإحتمالات دون الاهتمام المباشر بالواقع السياسي والإجتماعي.

إن دفاعه عن ديكارت لم يُنظر إليه كولاء مطلق للفكر الديكارتي، بل كخيار استراتيجي اتخذه بحكمة لمهادنة المؤسسة الدينية وتفادي الصدام مع سلطتها، في سياق كان فيه التعبير الحر محفوفًا بالمخاطر؛ " اتخذه ديكارت حتى يحتوي رجال

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مراجعة: فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، (د.ط)2008، ص11.

الدين من الداخل، ولا يصطدم مع السلطة بالتعارض والمواجهة، يكفيه أنه وضع قنبلة زمنية انفجرت بعده في سبينوزا وفولتير. وتناثرت شظاياها في العصر الحديث بطوله وعرضه. وسواء أكان هذا الدفاع عن حق أم عن حب، فإن الثورة الحقيقية في الفكر الديني والواقع السياسي قد قام بها سبينوزا."[1]

يُعتبر سبينوزا من الأوائل الذين طرحوا فكرة الديمقراطية الحديثة، إذ اعتبر أن النظام السياسي يجب أن يكون مستندًا إلى العقل بحيث يضمن حريات الأفراد ويقيم توازنًا بين السلطات، هذه الأفكار كان لها تأثير عميق في تطور الفكر السياسي في القرون التالية، خاصة في أعمال فلاسفة مثل فولتير وروسو، في المقابل حارب سبينوزا في سبيل حرية الفكر والتعبير، معتقدًا أن حرية الفرد في التفكير من أهم المبادئ التي يجب أن تكون مكفولة في أي مجتمع ديمقراطي.

ثانيا: السياقات الإجتماعية والسياسية والدينية التي نشاء فيها سبينوزا:

يُعد السياق **الإ**جتماعي والسياسي الذي نشأ فيه سبينوزا أحد العوامل الهامة التي شكلت فكره الفلسفي وساهمت في تطور نظرته النقدية تجاه الدين، السياسة، والعقل، نشأ سبينوزا في بيئة كانت مليئة بالتحديات الاجتماعية والسياسية، في هولندا في القرن السابع عشر، وهي فترة شهدت صراعات دينية صعود لتيارات فلسفية جديدة وصراع من أجل الحرية الفكرية، سنتناول في هذا الجزء السياق الإجتماعي والسياسي الذي نشأ فيه سبينوزا وأثره على تطور أفكاره الفلسفية.

[1] باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره، ص11.

أ/ السياق السياسي في هولندا في القرن السابع عشر:

شهدت هولندا خلال القرن السابع عشر تحولات سياسية عميقة، تميزت بصراع بين النزعة الجمهورية والتوجهات الدينية المحافظة، في ظل نظام لا مركزي واتساع نفوذ الكنيسة. وقد عايش سبينوزا هذه المرحلة المضطربة التي اتسمت بالتوتر بين حرية الفكر وسطوة السلطة، مما أثّر بعمق في مشروعه الفلسفي.

من هذا المنطلق، " فإن البحث في مشكلة الحرية والسلطة السياسية عند سبينوزا حركته الرغبة في تتبع تجربة فلسفية حية، بعيدة جغرافيا وزمنيًا عن العالم العربي، لكنها تشترك معه في حلم الحرية والانعتاق كما تكشف عن دور الفلسفة وحضور الفيلسوف في مشكلات واقع أمته ومحاولته الجادة لحلها، أو تقديم قراءة عقلانية على الأرجح، وخاصة حين نلتفت نحن العرب الى واقعنا المرير والذي لا يختلف في ملامحه العامة عن الحقبة الزمنية التي عاشها سبينوزا (القرن السابع عشر)."[1]

في القرن السابع عشر برزت هولندا كإحدى أكثر الدول تطورًا على المستويين السياسي والإقتصادي، غير أنها كانت في الوقت نفسه ساحة لصراعات سياسية واجتماعية متشابكة، فقد استطاعت أن تنتزع استقلالها من الهيمنة الإسبانية بعد حرب طويلة امتدت لثمانين عامًا (1568م–1648م)، معلنة بذلك ميلاد الجمهورية الهولندية. وقد شكل هذا التحول السياسي خطوة متقدمة في تاريخ أوروبا، إذ تبنّت الجمهورية نظامًا سياسياً جمهورياً اتسم بتعددية نسبية، مما أتاح ظهور مساحة أوسع للحوار الفكري والنقاش الحر، وهي البيئة التي أثّرت في تشكّل فكر سبينوزا الفلسفي.

[1] رحالة عباسية، الحرية والسلطة السياسية في فلسفة سبينوزا، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، اشراف ارزقي بن عومر،2014-2015، ص03.

كانت هولندا في تلك الفترة تعيش حالة من التوتر السياسي والديني، رغم طابعها الجمهوري وتعددية نظامها فقد شهدت البلاد صراعات بين من يناصرون الحكم المدني ومن يتمسكون بالهيمنة الدينية، إلى جانب التوتر القائم بين الأغلبية البروتستانتية والأقليات الكاثوليكية واليهودية في هذا الجو المشحون، نشأ سبينوزا وسط طائفة يهودية صارمة لم تتقبل أفكاره النقدية، فكان الرفض والإقصاء مصيره. هذا الوضع لم يثنه، بل دفعه لتطوير فكر يدعو لتحرير العقل من سلطة النصوص الدينية، والتأكيد على ضرورة فصل الدين عن الدولة، بوصفه الطريق لضمان حرية التفكير والتعايش السلمي.

ب/الوضع الاجتماعي في أمستردام وتنوعه الديني والثقافي:

مرّت هولندا في الفترة التي وُلد فيها سبينوزا بتحولات اجتماعية هامة؛ ففي أثناء حياته، تمكنت المقاطعات السبع في الأراضي الواطئة من التحرر من الحكم الإسباني، مما أدى إلى تحولها السريع إلى دولة تجارية رائدة، وكان هذا الطابع التجاري قد بدأ يظهر بوضوح حتى قبل تحقيق الإستقلال؛ "ففي سنة (1602م) أسست شركة الهند الشرقية التي كانت أشبه بدولة داخل الدولة، كما تكونت في (1621م) شركة الهند الغربية على أسس مماثلة، وحققت هذه الشركات للبلاد إمبراطورية واسعة الأطراف ما زالت آثارها باقية حتى اليوم."[1]

غير أن تحرر هولندا من النظام الإقطاعي الذي كان سائدا في العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة قد اقترن بنهضة علمية وفكرية لا يمكن إنكارها؛ فالأمر الذي لا شك فيه والذي شهد به اسبينوزا نفسه – أن بلاده كانت بالقياس إلى غيرها من البلدان في ذلك العصر، تشجع التسامح الديني وحرية الفكر، وإن يكن ذلك التحرر الفكري نسبيا فحسب.

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره، ص19

وأدى ذلك إلى نهضة علمية وفنية وفلسفية كبيرة؛" ففي ميدان العلوم، تمت في هولندا كشوف هامة في الطبيعة والفلك والميكانيكا، وكان من معاصري اسبينوزا العالم الطبيعي المشهور «هيجنز Huygens» والعالم البيولوجي الكبير «ليفنهويك,Leuuwenhock» أما في ميدان الفن فقد اشتهرت المدرسة الهولندية في الرسم وعلى رأسها رمبرانت الذي رسم لوحة مشهورة لسبينوزا. وفي ميدان الفلسفة كانت هولندا هي البلد الذي أوى ديكارت حين هاجر من فرنسا، كما كان الفكر الحر الخارج على التقاليد السياسية والدينية أمرًا مألوفًا وإن كان المفكرون المتحررون لقوا رغم ذلك نصيبهم من الإضطهاد."[1]

في القرن السابع عشر كانت تُعد أمستردام واحدة من أكثر المدن التي تمتاز بتنوع ثقافي وديني كبير، كانت هولندا قد بدأت في تجميع العديد من الأقليات الدينية من مختلف أنحاء أوروبا، بما في ذلك اليهود الذين فروا الإضطهاد في البرتغال وإسبانيا ومن ثم نشأت جالية يهودية كبيرة في أمستردام، لكن هذه الجالية كانت تعيش في حالة من الإضطراب الديني بسبب التضارب بين أفكارها التقليدية وبين التطورات الفكرية والفلسفية الجديدة التي كانت تحدث في أوروبا في هذا السياق كان سبينوزا قد نشأ في عائلة يهودية مهاجرة من البرتغال، حيث كان والده مايكل سبينوزا تاجرًا يهوديًا وكان يسعى للحفاظ على تراثه الثقافي والديني، ومع ذلك من خلال تعليمه في مدرسة يهودية في أمستردام وتعرضه للأفكار العقلانية والديكارتية، بدأ سبينوزا في تطوير مواقف نقدية تجاه الدين التقليدي، وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى طرده من الطائفة اليهودية في سن مبكرة. كان المجتمع

[1] المصدر نفسه، ص19

الهولندي في أمستردام يضم عددًا كبيرًا من المفكرين والمبدعين الذين ساهموا في تطور الفلسفة والعلم مثل: رينيه ديكارت وبيتر بيرنارد، وقد كانت هذه الفترة تُعد من العصور الذهبية للعلم والفلسفة في هولندا، حيث شهدت تطورًا غير مسبوق في مختلف المجالات، هذه البيئة الفكرية المزدهرة أثرت بشكل كبير على سبينوزا، ومنحته الفرصة للتفاعل مع أفكار جديدة والتطور الفلسفي.

ج/الصراعات الدينية وتأثيرها على فكر سبينوزا:

في تلك المرحلة من تاريخ أوروبا، كان الدين يلعب دورًا محوريًا في تشكيل الحياة الإجتماعية والسياسية، ولم تكن هولندا بمعزل عن هذا الواقع، فقد أثرت الصراعات الطاحنة بين البروتستانت والكاثوليك التي اجتاحت أوروبا على الوضع الداخلي في البلاد مما زاد من حدة التوتر والإنقسام داخل المجتمع الهولندي، هذا المناخ الديني المشحون كان له تأثير عميق في تشكيل وعي سبينوزا الذي بدأ يدرك مبكرًا أن استغلال الدين في السياسة لا يؤدي إلا إلى القمع والتمييز وهو ما دفعه لاحقًا إلى بناء فلسفة تقوم على تحرير العقل من سطوة اللاهوت،" كان البروتستانت في هولندا يعتقدون في حرية التدين الإعتقاد، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يمارسون رقابة شديدة على الدين من خلال فرض الإيمان البروتستانتي في مجالات الحياة العامة، "وفي هذه المرحلة الحرف العبرانيون عن ميثاقهم مع الله، فيحكم أن الأنبياء لا يورثون، فبعد وفاة موسى عليه السلام حكم شيوخ العشائر الدولة."[1]

وتكونت طبقة من النبلاء يحتكرون الامتيازات المادية والسلطة الروحية، وأصبحت المنافسة في الحكم متفشية بين العشائر الإثني عشر، واستغل اللابون (من سبط لاوي بن يعقوب بن إسحاق نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية لإذلال الشعب

[1] بن الذيب الجموعي، شهيدة لعموري، الدين والدولة بين باروخ سبينوزا ومالك بن نبي– دراسة مقاربة. ضمن مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، المجلدا (1) العدد 03 ،2023، ص95.

وإخضاعه؛" فكان أن التشرت الثورات والفان مما أدى إلى الخيار الدولة العبرانية، والسبب هو الطبقة الكهنوتية التي تكونت عقب انتهاء حكم موسى عليه السلام، فتغيرت القرارات والقوانين حسب الأطماع الشخصية التي اكتسبت طابعا دينيا، وهذا ما يسميه سبينوزا "بأدلجة الدين" أو تسييس الدين، فإن انحراف الكهنة وتملقهم وتعصبهم الشديد أدى إلى تمزق الدولة " [1]؛ هذا الإستغلال الذي وقع للدين في غير حقه، أدى إلى عواقب سلبية على الدولة، فيصبح مسيطرا على السلطة السياسية، فالحاكم في حد ذاته يأتمر بأمر المعبد أو الكنيسة " لذلك من السهل باسم الدين دفع العامة تارة إلى عبادة الملوك كأنهم الهة، وتارة إلى كراهيتهم ومعاملتهم كأنهم طامة كبرى على الجنس البشري، وهذا تفوق واضح لرجال الدين وسيطرتهم على الجانب الروحي السياسي، مما ترتب عنه الخلط بين القداسة الإلهية والمطامع الشخصية ويديرون حروبا مذهبية طاحنة راح ضحيتها الملايين من البشر."[2]

باعتبار أن سبينوزا كان من عائلة يهودية، فقد تعرض للعديد من القيود من قبل طائفته الدينية بسبب آراءه التي كانت تعتبر هرطوقية في نظرهم هذا التوتر بين الفلسفة الدينية والفلسفة العقلانية دفعه إلى نقد الدين التقليدي ورؤيته لطبيعة الله والوجود. في هذا السياق كان سبينوزا يعارض كل من الكنيسة والدين الذي يعتمد على الطقوس والمعتقدات التي لا تتماشى مع العقل، كما كان يؤمن بأن الدين يجب أن يكون قائمًا على الفهم العقلي للطبيعة، وأن الناس يجب أن يكونوا أحرارًا في التفكير والاعتقاد دون خوف من السلطة الدينية أو السياسية.

[1] مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، سبق ذكره. ص95.
[2] المجلة نفسها ص 96

د/ تأثير هذه السياقات على فلسفة سبينوزا:

تأثرت فلسفة سبينوزا تأثرًا عميقًا بالبيئة الهولندية التي نشأ فيها خلال القرن السابع عشر، وهي بيئة تميزت بقدر من الإنفتاح الفكري والتسامح الديني مقارنة بباقي الدول الأوروبية هذا المناخ الثقافي والسياسي شجعه على تطوير فكر عقلاني يُعلي من شأن الحرية الفردية ويدعو إلى تفسير عقلاني للوجود، وقد ساعده ذلك على الخروج من القيود التقليدية التي فرضتها الأديان خاصة بعد تجربته القاسية مع طائفته اليهودية التي نبذته بسبب آرائه الجريئة.

تكوينه الفكري تأثر كثيرًا بالفلسفة الديكارتية، لكنه لم يكتف بتكرار أفكار ديكارت، بل تجاوزها ليبلور فلسفة خاصة به تقوم على مبدأ وحدة الوجود، حيث اعتبر أن الله والطبيعة شيء واحد وهو ما شكل تحولًا جذريًا في التصور التقليدي للإله والدين،" سبينوزا هو الديكارتي الوحيد الذي استطاع أن يُطبق المنهج الديكارتي تطبيقا جذريا في المجالات التي استبعدها ديكارت من منهجه، خاصة في مجال الدين، وأعني الكتب المقدسة والكنيسة والعقائد والتاريخ المقدس... إلخ"[1]،

كما كان للصراعات الدينية والسياسية التي شهدتها هولندا دور كبير في تشكيل رؤيته؛ إذ رأى أن الربط بين الدين والسياسة يؤدي إلى الإستبداد، فدافع بقوة عن ضرورة الفصل بينهما، واعتبر أن النظام الديمقراطي هو الأكثر انسجامًا مع الطبيعة والعقل لقد كان سبينوزا مفكرًا جريئًا سبق عصره في كثير من القضايا، وساهمت بيئته، ونشأته، وتجربته الشخصية في جعله من أبرز المدافعين عن الحرية الفكرية والعقلانية في الفلسفة الحديثة.

[1] باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره، ص09

هـ/السياقات الدينية لفلسفة سبينوزا:

1. موقفه من اليهودية:

لجأ الإنسان عبر مختلف العصور إلى الاعتقاد بكيان يعد مصدر شرائع وقوانين تنظم حياته، وقد استمر هذا الأمر منذ القدم حتى ظهور الديانات السماوية في العصور الوسط مما يعكس حاجة الإنسان الروحية والمادية.

والديانة اليهودية كغيرها من الديانات تعتبر النص المقدس الذي أنزله الله على البشر المرجع الأساسي لها، غير أن هذا الكتاب تعرض للكثير من النقد وكان سبينوزا من بين الفلاسفة الذين انتقدوه، وذلك بسبب ما طَرأ عليه من تحريف مما كشف جانبًا آخر من القضية، وهو تدخل رجال الدين فيه وسعيهم لاستغلاله لتحقيق مصالح دنيوية؛ "معرفة الكتب المقدسة وبينا أنها ليست إلا المعرفة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس. ولكن القدماء أهملوا هذه المعرفة بالرغم من ضرورتها، وبالرغم من أنهم دونوها ونقلوها فقد فقدت بعد أن أصابتها عوادي الزمان، وبالتالي ضاع منا كلية جزء كبير من هذه الأسس والمبادىء"[1].

ولقد كان بالإمكان تحمل ذلك لو ظل الخلف، فيما بعد ملتزماً حد الإعتدال، ونقل بأمانة إلى المتأخرين القليل الذي وجده دون أن يدخلوا عليه إضافات من صنع أهوائهم متذرعين بتأويلات لم تكن أصلية.

فقد كانت خيانته سبباً في أن أصبحت المعلومات التاريخية عن الكتاب ناقصة بل وكاذبة؛ "أي أن الأسس" التي تقوم عليها معرفة الكتاب ليست غير كافية فقط من حيث الكم، بحيث لا نستطيع أن نقيم عليها شيئاً كاملاً بل إنها أيضاً معيبة من

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره ص257.

حيث الكيف. لذلك فقد استقر عزمي على أن أصححها وأن أخلص اللاهوت من الأحكام المسبقة الشائعة فيه."[1]

يرى سبينوزا أن الفهم الصحيح للكتب المقدسة لا يكون إلا من خلال دراستها دراسة تاريخية ونقدية، غير أن القدماء أهملوا هذا الجانب رغم ضرورته، مما أدى إلى ضياع جزء كبير من الأسس والمبادئ التي كان يمكن أن تساعد في تفسيرها بشكل صحيح. ورغم هذا الضياع، كان بالإمكان الحفاظ على ما تبقى لو أن الأجيال اللاحقة نقلته بأمانة، لكنها بدلاً من ذلك أضافت إليه أفكارًا جديدة لم تكن موجودة في الأصل، مما أدى إلى تشويه الحقائق التاريخية حول الكتاب المقدس. ونتيجة لذلك، لم تصبح المعرفة ناقصة فقط، بل أصبحت أيضًا معيبة وغير دقيقة، مما جعل من المستحيل بناء فهم سليم عليها، لهذا السبب عزم سبينوزا على تصحيح هذه الأخطاء، وتحرير علم اللاهوت من الأحكام المسبقة التي تراكمت عليه عبر الزمن، من خلال اعتماد منهج نقدي وعقلاني يعيد تقييم النصوص الدينية في ضوء الحقائق التاريخية.

ففي أواخر القرن السابع عشر، أصبحت هولندا ملاذًا للفكر الحر مما أتاح للمهرطقين ومن بينهم سبينوزا، فرصة للعيش والتعبير عن أفكارهم. وُلد سبينوزا في أمستردام، حيث تأثر لاحقًا بحركات التنوير وفلاسفتها ومفكريها. فقد قرأ أعمال جيوردانو برونو، وديكارت، وهوبز، كما تعلم اللاتينية، ما مكنه من الإطلاع على فلسفة العصور الوسطى خاصة فكر توما الأكويني، إضافةً إلى تأثره بالأفلاطونيين المحدثين وقراءته لبيكون.

ورغم انفتاحه على الفلسفات الغربية، لم يكن سبينوزا بعيدا عن تأثير الفكر اليهودي، إذ درس التوراة ثم انتقل إلى التلمود واطلع على فلسفة ابن جبيرول وقد

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة المصدر نفسه ص257.

نشأ في بيئة برجوازية مستنيرة، إلاّ أن مواقفه الفكرية أثارت جدلًا واسعًا، حيث اعتُبر ملحدًا وفق المفاهيم السائدة آنذاك، واجه سبينوزا رفضًا قاطعًا من الطائفة اليهودية التي أصدرت بحقه قرار الحرم، متهمة إياه بالإلحاد. ومع ذلك لم يُبدِ سبينوزا اهتمامًا كبيرًا بهذا الإقصاء، بل اختار تغيير اسمه من "باروخ" إلى "بندكتوس" باللاتينية.

ويعود طرده من الجماعة اليهودية إلى عدة أسباب أبرزها الاختلافات العقائدية في المسائل اللاهوتية التي كانت كفيلة وحدها بإقصائه، بالإضافة إلى تبنيه نزعة تحررية في آرائه السياسية والإجتماعية، وهو ما اعتُبر تهديدًا لرجال الدين اليهود." لقد طردته مرتين في مجمعها، ولقي نتيجة ذلك الطرد ألوانا شتى من الإحتقار والمذلة؛ فكان اليهود يبصقون في وجهه ويلقون على بيته القاذورات والجيف واحتمل الرجل ذلك كله سبع سنوات كاملة، كان قد استسلم خلالها مرة لأعدائه، وطلب الغفران، ولكن حملات الكراهية والتعذيب استمرت رغم ذلك، حتى لم تعد أعصابه تحتمل، فأعلن توبته وطلب المغفرة للمرة الثانية، ولكن السلطات الدينية اليهودية لم تكتف بذلك، وإنما طلبت إليه أن يعترف أمام جمع غفير بذنوبه وخطاياه، ففعل، ثم جلد أمام هذا الحشد تسعا وثلاثين جلدة تتخللها قراءات تستنزل اللعنات عليه، وأخيرًا طلب إليه أن يركع أمام باب المعبد فمر الجميع من فوقه إمعانا في إذلاله."[1]

كذلك نزعة سبينوزا التحررية في آرائه السياسية والإجتماعية، وهي نزعة تعد خطرا على الإتجاه المحافظ بين رجال الدين اليهود، فسبينوزا كان ذو نزعة عالمية يحتقر فكرة الشعب المختار وقد اجتذبته قبل كل شيء الآراء الدينية المتحررة، وكانت آرائه السياسية والإقتصادية مضادة تماما لآراء قادة الطائفة اليهودية؛ كما أن سبينوزا لم

[1] فؤاد زكريا: سبينوزا، مرجع سبق ذكره، ص20.

يطرد فقط لعقائده وآرائه فحسب بل طرد لأن أفكاره الإقتصادية والاجتماعية كانت تهدد المصالح التجارية لليهود.

إن العوامل التي تأثر بها سبينوزا جعلته يثور على العقائد الدينية لليهود ويبين حقيقتها كما أنه تأثر كثيرا من الكره الذي عانى منه في صغره مما جعل من بين أحلامه أن يزيل هذا الكره حيث صرّح لوالده قائلاً: "عندما أكبر، سأبحث عن وسيلة للحد من كراهية الناس بعضهم لبعض، حيث عانى منذ طفولته من الظلم والتهميش، مما دفعه إلى معارضة العقيدة اليهودية، وهو ما أدى إلى طرده من الكنس اليهودي. وقد تمحور أبرز خلافاته مع الجماعة اليهودية حول مسألة خلود العقل. وقوله أيضا: " لذلك فقد استقر عزمي على أن أصححها وأن أخلص اللاهوت من الأحكام المسبقة الشائعة فيه، ولكني أخشى أن تكون محاولتي قد أتت بعد فوات الأوان: فقد وصلت الأمور إلى حد لم يعد الناس معه يطيقون أن يصحح أحد آراءهم المتعلقة بالدين، وأصبحوا يدافعون بعناد عن الأحكام المسبقة المتميزة التي يتمسكون بها باسم الدين، ولم يعد للعقل أي مكان إلا عند عدد قليل (نسبيا)، على حين أن الأحكام المسبقة قد انتشرت انتشاراً واسعاً. ومع ذلك سأحاول وسأستمر في محاولتي إلى النهاية؛ إذ ليس هناك ما يدعو إلى اليأس الكامل"[1] ؛هذا هو" أن الجو الروحي لليهودي الذي نشأ فيه سبينوزا كان معاديا للتفكير الفلسفي وكذلك أن الاعتقاد بمثل هذه الأفكار عبر عنه اليهود بأنه استهزاء بمعتقداتهم اليهودية. وكذلك تقديمه للعقل على الوحي واعتبار نصوص الكتاب المقدس ليست مطلقة وهذا ما جعل الطائفة اليهودية تثور عليه،"[2] وقد روى المؤرخ ديورانت قصة حرمان سبينوزا، فبعد أن خرج أعضاء الكنيسة إلى الظلام الذي ولده انطفاء آخر جذوة من الضوء مشيرة إلى انطفاء الحياة الروحية للشخص المحروم،

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره، ص257.
[2] د. منذر شباني، سبينوزا واللاهوت، منشورات وزارة الثقافة. الهيئة العامة السورية للكتاب (د.ط)2009 ص19

اتخذ المجلس الملي اليهودي قرار الحرمان بحق سبينوزا عقابا على هرطقته وبدعه و نورد هنا الكلمات والطريقة حيث يقول: " بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرم ونعلن وننبذ ونصب دعائنا على باروخ سبينوزا بموافقة الطائفة المقدسة كلها وبوجود الكتب المقدسة ذات الستة مئة وثلاثة عشر ناموسا المكتوبة بها نصب عليه اللعنة وجميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة وليكن ملعونا ومغضوبا عليه ليلا ونهارا"[1]؛ بعد حرمانه من الكنيس اليهودي، وجد سبينوزا نفسه منبوذًا من طائفته ومجتمعه بسبب أفكاره التي تعارض معتقداتهم. لقد تعرض لظلم كبير، مما دفعه إلى البحث عن طائفة أخرى وعقيدة يجد فيها ملجأً ويدافع عنها. فكانت المسيحية إحدى الخيارات التي واجهها، **فكيف كان موقفه منها؟**

2. موقفه من المسيحية:

تميزت المسيحية منذ ظهورها بتوجهها الروحي والأخلاقي، حيث ركزت على قيم المحبة والتسامح والإيمان، وجعلت من الإنسان محور رسالتها. وبخلاف بعض العقائد التي اهتمت بالطقوس والشريعة بشكل صارم، جاءت المسيحية لتضع الإيمان في صميم علاقتها بالله، مؤكدة على أهمية التجربة الروحية والتطبيق العملي للقيم الدينية في الحياة اليومية. وقد شكلت هذه المبادئ مصدر جذب لكثير من المفكرين، خاصة أولئك الذين كانوا يبحثون عن رؤية دينية تتماشى مع العقل والأخلاق، وهو ما جعلها موضوع اهتمام لدى العديد من الفلاسفة، ومن بينهم سبينوزا، الذي سعى إلى دراسة جوهرها ومقارنتها بعقيدته السابقة.

بعد أن حُرم سبينوزا من العقيدة اليهودية ونُفي من بلده، لجأ إلى هولندا التي كانت ملجأً للطائفة اليهودية، وهناك عاش وسط المسيحيين. كان أول ما قام به هو تغيير اسمه لتجنب أي مشاكل مع الطائفة المسيحية، حيث سعى إلى التعرف على

[1] المرجع نفسه، ص19

عقيدتهم ودراستها. ومن خلال بحثه توصل إلى أن مفهوم الله في المسيحية يختلف عن مفهومه في اليهودية، فالله عند المسيحيين موجود وفق ضرورة منطقية وعلمية، وهو ما جعله يميل إلى هذه العقيدة، خاصة وأنها تحتوي على تعاليم إنسانية تهتم بالإنسان وحقوقه، وتركز على الجانب الروحي، كما أنها تعطي أهمية كبيرة للإيمان وتجسيده في الواقع، على عكس اليهودية التي رأى أنها تركز على المصالح الشخصية والمنافع الدنيوية.

كان سبينوزا يرى أن" تعاليم موسى في الوصايا العشر كانت في رأيه مكيفة تبعا لأذهان اليهود، وترمي إلى تحقيق رفاه مملكتهم فحسب؛ أي إن موسى كان يخاطب اليهود بوصفه مشرعًا وقاضيا. وكان يتناول في تشريعه الجانب الظاهر من سلوك الإنسان، أما المسيح فقد تناولت تعاليمه حياة الإنسان الباطنة، وكان الجزاء عنده روحيا أكثر منه دنيويا"[1]؛ وهذا ما جعله يرى في المسيحية بعداً أكثر عمقاً من الناحية الأخلاقية. كما لاحظ أن طريقة الإتصال بين الله وأنبيائه تختلف بين الديانتين، ففي اليهودية كان الإتصال يتم عن طريق التخاطب، بينما في المسيحية، كان يتم عبر الذهن والفكر، مما جعل التعاليم المسيحية؛ في نظره، أكثر وضوحاً واستقلالاً عن الحاجة إلى تفسير مباشر، عندما تحدث سبينوزا عن المسيح " فإنه لا يقصد مطلقاً أي صورة مجسمة للمسيح المعروف في العقيدة المسيحية فالمسيح لديه على أكثر تقدير حكيم يدل بصورة رمزية على الفكر الأبدي في الروح الإنساني"[2].

وقد تطرق سبينوزا إلى هذا الموضوع في الرسالة لأنه يتحدث فيها " عن إيمان المسيحيين العاديين ولا يريد مس شعورهم بالنسبة لتقديس الكتاب وكذلك لأنه يتحدث عن ايمان اليهود السذج الذين يعتقدون بأفضلية موسى على سائر الأنبياء

[1] فؤاد زكريا: سبينوزا، مرجع سبق ذكره، ص186.
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره، ص128

كما يريد اقناع المسيحيين الشرفاء بالحديث عن الإلهام الروحي الذي اختص به المسيح وحده. وقد تحدث سبينوزا من قبل عن المسيح (Ch،CourtTraite) بوصفه ابنا لله ويعني به الحركة وهي أثر من آثار الله؛ أي أن سبينوزا لم يستمر إلا اللفظ، وذلك لأنه ينكر ألوهية المسيح ويرى استحالة أن يصبح الله انسانياً. ولكنه يقول: إن المسيح هو فم الله يأخذ من روح الله مباشرة بلا وساطة أو علامة أي أن المسيح لديه حكيم فريد عرف الحب العقلي وأراد تعليم البشر عن طريق المثل، فالمسيح هو الحكمة الأبدية التي تتبدد في الطبيعة كلها، فسبينوزا يريد معرفة المسيح طبقاً للروح لا طبقاً للجسد"[1]؛ اي أنه يرى أن المسيح ليس شخصية إلهية متجسدة كما تصوّره العقيدة المسيحية، بل هو حكيم يجسد الفكر الأبدي في الروح الإنسانية. عندما تناول سبينوزا موضوع المسيح في رسالة في اللاهوت والسياسة، كان يسعى لتوضيح إيمان المسيحيين العاديين دون المساس بتقديسهم للكتاب المقدس، كما حاول إقناع المسيحيين الصادقين بفكرة الإلهام الروحي الذي تميّز به المسيح وحده. وبالمثل، ناقش إيمان اليهود البسطاء الذين يرون موسى أفضل الأنبياء. بالنسبة لسبينوزا، المسيح هو "فم الله"؛ أي أنه متصل بالحكمة الإلهية مباشرة دون وسطاء، فهو مثال للحب العقلي والسعي لنشر المعرفة عبر الأمثلة. لذلك، لم يعترف سبينوزا بألوهية المسيح، بل رآه تجسيدًا للحكمة الأبدية المنتشرة في الطبيعة، مؤكدًا أن فهم المسيح يجب أن يكون روحيًا وليس جسديّا ورغم إعجابه بالمسيحية لم يعتنقها، لأنه رأى فيها خطورة لا تقل عن الديانة اليهودية. فقد دهش عندما لاحظ أن الكثيرين ممن يفتخرون بإيمانهم بالمسيحية، التي تدعو إلى الحب والسلام والإخلاص، يتعاملون فيما بينهم بعداء شديد، ويظهرون الحقد بدلاً من تجسيد القيم الفضيلة. وهذا ما جعله يرى أن المسيحية،

[1] المصدر نفسه، ص128.

مثل اليهودية، ابتعدت عن تعاليمها الأصلية، وأصبحت تخضع لمصالح دنيوية وصراعات داخلية.

وبعد مقارنة المسيحية باليهودية، خلص سبينوزا إلى أنهما لا تختلفان كثيراً من حيث تطبيق تعاليمهما على أرض الواقع، وأن المشكلة ليست في المبادئ بحد ذاتها، وإنما في الطريقة التي يتم بها تجسيدها من قبل الأتباع. ولكنه رغم ذلك، كان يرى أن الفرق بين الديانتين يكمن في تعاليم الأنبياء، فبينما ركز موسى على الجانب الظاهري للإنسان، اهتم المسيح بجانبه الباطني. وقد عبر عن ذلك بقوله:"...كشف الله عن نفسه للحوارين من خلال روح المسيح كما كشف الله عن نفسه من قبل صوت خارجي، يمكننا إذن تسمية صوت المسيح صوت الله كالصوت الذي سمعه موسى من قبل، وبهذا المعنى نستطيع أن نقول أيضًا بأن حكمة الله، هي حكمة تفوق الحكمة الإنسانية، قد تجسدت في المسيح وان المسيح أصبح طريقا للخلاص"[1]؛ انطلاقًا مما سبق، يمكننا استنتاج أن سبينوزا رأى في المسيحية تصورًا أكثر عمقًا وروحانية لمفهوم الله وتعاليم الدين، حيث ركزت على البعد الروحي والباطني للإنسان، مما يساهم في تحقيق الأمن والسلام بين البشر. هذا الموقف كان نابعًا من تجربته الشخصية وما شهده من مظاهر الظلم داخل العقيدة اليهودية، في مقابل الإستقرار الذي لاحظه في المسيحية. ومع ذلك لم يؤدِ إعجابه بها إلى اعتناقها، بل بقي ملتزمًا برؤيته الفلسفية المستقلة.

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سابق، 129.

المبحث الثاني:

قراءة في المفاهيم الأساسية:

أولا: قراءة في المفاهيم:

أهم المفاهيم المركزية لفلسفة سبينوزا، والتي سنحاول في هذا المبحث التطرق إلى دلالاتها هي: مفهوم اللاهوت والعقل ومفهوم السياسة والحرية والحق والسلطة.

أ/اللاهوت (Théologie):

التعريف اللغوي:

اللاهوت هو "من المصطلحات التي تنتمي إلى المجال الديني. مشتق من الكلمة اليونانية Theologia، وهي مركبة من theos (إله)وlogos (علم أو دراسة). في هذا السياق، يشير اللاهوت إلى العلم الذي يدرس الإله والعقائد الإيمانية والتعاليم الدينية التي تُسَلم بها مجموعة من الناس."[1]

التعريف الإصطلاحي:

اللاهوت Théologie " هذا العلم ينطلق من معتقد ديني معين أو من مجموعة من المعتقدات ويحاول فهم مسائل الدين واستكشافها من نقطة الانطلاق هذه."[2]

في سياق العلوم الإنسانية، يُفهم اللاهوت كدراسة للإلهيات والعقائد الدينية التي تُعبّر عن الطبيعة الإلهية وكيفية تفاعلها مع البشر. اللاهوت التقليدي يدرس المفاهيم مثل الوحي، الطقوس، والخلاص، ويرتبط غالبًا بنظريات التفسير الديني للنصوص المقدسة.

التعريف الفلسفي عند سبينوزا:

سبينوزا يعارض المفهوم التقليدي للاهوت الذي يُستخدم لتفسير الكون وحكم الطبيعة، بل يُعرّف اللاهوت في سياقه كعلم أخلاقي يقصد به توجيه النَاس نحو

---

[1] https://www.almaany.com/ar.02/03/2025/.23:25pm

[2] مجلة جامعة تشرين الآداب والعلوم الإنسانية سبق ذكرها، ص427.

الفضيلة. من خلال هذا المفهوم، يؤكد سبينوزا أن الدين لا يجب أن يُستخدم كمصدر للسلطة السياسية أو لتفسير الظواهر الطبيعية. اللاهوت، وفقًا له، هو مجال مستقل يهدف إلى بناء الأخلاق بين الأفراد بناءً على نصوص دينية، ولا ينبغي أن يتدخل في الشؤون العامة أو في تشريع قوانين الدولة.

مقاربات فلسفية: توما الأكويني:

يعتبر اللاهوت علمًا يرتكز على الوحي، مكملًا لفلسفة الأكويني يؤمن بأن العقل البشري والوحي الإلهي يمكن أن يتعاونوا في فهم الحقيقة الإلهية. هذا المنظور يختلف عن سبينوزا الذي رفض استخدام الدين كأداة تبرير للقوانين أو للسلطة السياسية. حيث يقول توما متأثرا بهذا الأخير (أرسطو) ما يلي: " لا يمكن للعقل البشري أن يبلغ، بملكته الفطرية، إلى إدراك جوهر الله بالذات، لأن معرفة عقلنا تبدأ بمقتضى نمط الحياة الحاضرة بالحسن، ولهذا فإن ما لا يقع تحت الحواس لا يمكن أن يدرك من قبل العقل البشري، إلا إذا جرى استنباطه بدءا من الحواس والحال أن المحسوسات لا يمكن أن تقود عقلنا إلى أن يرى فيها كنه الجوهر الإلهي، لأنها لا تعدوا أن تكون معلولات لا تضاهي شرف العلة."[1]

2.تعريف اللاهوت عند سبينوزا:

في فلسفة سبينوزا، يُفهم اللاهوت على أنه دراسة العلاقة الجوهرية بين الله والطبيعة، بعيدًا عن المفاهيم التقليدية التي تميز بين الخالق والمخلوق. يعتبر سبينوزا أن الله والطبيعة هما كيان واحد، حيث يقول:" الله –أعني جوهراً يتألف من عدد لا محدود من الصفات المعبرة كل واحدة عن ماهية أزلية ولا متناهية – واجب

[1] Plateforme pédagogique de l'Université Sétif2
https://cte.univ-setif2.dz04-03-2025/03 :22 Am (محاضرات غير منشورة فلسفة توما الإكويني)

الوجـود"[1]. هـذا يعنـي أن الله لـيس كيانًـا منفصـلًا عـن العـالم، بـل هـو الطبيعـة ذاتهـا بكل ما تحتويه من قوانين وظواهر.

فـي كتابـه "رسـالة فـي اللاهـوت والسياسـة"، يوضـح لنـا أن الإيمـان والفلسـفة مجـالان منفصـلان، وأن العقـل لـيس خادمًـا للاهـوت، بـل لكـل منهمـا مجالـه الخـاص. يـذهب سـبينوزا إلـى أن غايـة الفلسـفة هـي البحـث عـن الحقيقـة، بينمـا يهـدف الإيمـان إلـى تعزيـز الطاعـة والتقـوى. يقـول فـي هـذا السـياق: " وبـذلك نكـون قـد أثبتنـا أن اللاهـوت لـيس خادمـا للعقـل وأن العقـل لـيس خادمًـا للاهـوت، بـل إن لكـل منهمـا مملكتـه الخاصـة للعقـل مملكـة الحقيقـة والحكمـة، كمـا قلنـا مـن قبـل، وللاهـوت مملكـة التقـوى والخضـوع "[2]؛ اي إن الغايـة الحقيقيـة مـن الكتـب المقدسـة هـي تعلـيم النـاس الطاعـة والفضـيلة، ولـيس تعلـيمهم الحقـائق الفلسـفية و هـذا التمييـز يسـمح بفهـم أن اللاهـوت، وفقًـا لسـبينوزا، لـيس مجـرد دراسـة للغيبيـات، بـل هـو محاولـة لفهـم النظـام الكـوني الـذي يتحكم في كل شيء، والذي يتجلى فيه الله كجزء لا يتجزأ من الطبيعة.

فـي فلسـفة سـبينوزا، يتجـاوز اللاهـوت الفهـم التقليـدي الـذي يـربط الـدين بالغيـب والعواطـف، إذ لا يـرى الله كيانًـا منفصـلًا عـن العـالم، بـل يعتبـره هـو والطبيعـة جـوهرًا واحـدًا لا ينفصـل. فـالله لـيس كائنًـا شخصـيًا يتـدخل فـي تفاصـيل الحيـاة، بـل هـو الأسـاس الـذي تقـوم عليـه كـل الظـواهر الطبيعيـة، مـا يعكـس رؤيتـه لوحـدة الوجـود، حيـث يشـكل كـل شـيء فـي الطبيعـة جـزءًا مـن هـذا الجـوهر الإلهـي. بنـاءً علـى ذلـك، يصـبح فهـم اللاهـوت عنـده عمليـة عقليـة تهـدف إلـى إدراك القـوانين الطبيعيـة التـي تحكم الكون، باعتبارها تعبيرًا عن الطبيعة نفسها.

[1] باروخ سبينوزا، علم الأخلاق تر: جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتوره، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، (ط1)،2009. ص44

[2] باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره، ص 360.

كما يعارض سبينوزا النظرة التقليدية التي ترى الدين قائمًا على حقائق غيبية مفروضة، إذ يرى أن دوره يكمن في توجيه الناس نحو الأخلاق الفاضلة والإلتزام بالقيم الدينية، بدلًا من كونه وسيلة لمعرفة الحقائق الفلسفية أو العلمية. وبذلك، ينبغي أن يظل اللاهوت بعيدًا عن مجالات العقل والفلسفة، حيث يقتصر على تعزيز التقوى والعبادة. أما الفلسفة في نظر سبينوزا، فهي تسعى إلى اكتشاف الحقيقة والمعرفة عبر العقل والتفكير النقدي، دون أن تكون تابعة للدين. ومن هذا المنطلق، يرى أن الفلسفة هي الأداة التي تُمكّن الإنسان من فهم القوانين التي تحكم الطبيعة، بينما يركز الدين على تهذيب الأخلاق والسلوك بما يتماشى مع النظام الكوني الذي أوجده الله.

بالتالي، لا يعتبر سبينوزا اللاهوت مجرد بحث في الغيب أو العقائد الدينية الخالية من الأسس العقلانية، بل يراه منظورًا عقلانيًا لفهم الكون. فهو لا يفصل بين الإيمان والعقل، بل يسعى إلى تحقيق التكامل بينهما ضمن إطار طبيعي وروحي، محاولًا فهم الخالق والطبيعة دون التقيد بمفاهيم دينية قد تحدّ من حرية التفكير.

بهذا الفهم، يتحول اللاهوت لدى سبينوزا من كونه وسيلة لفهم الله ككائن متعالٍ إلى كونه وسيلة لاستيعاب النظام الكوني والطبيعة ككل. ويؤسس هذا التصور لنظرته إلى الدين والسياسة، حيث يرى أن الدين يجب أن يركز على غرس القيم الأخلاقية، بينما تظل الفلسفة والعقل أدوات لفهم العالم والطبيعة بموضوعية وعقلانية.

ب/ العقل (Reason):

التعريف اللغوي: " العقل في الأصل مصدر عقلت البعير أَعْقِله عقلاً إذ منعته من الشرود بحبل يشد في ركبته."[1]

[1] محمد بن ابراهيم الحمد، كتاب مصطلحات في كتب العقائد، دار بن خزيمة للنشر، ط1، ص127

التعريف الاصطلاحي:

العقل هو" الوظيفة المعرفية التي تسمح للإنسان بإدراك الحقيقة وفهم الأمور استنادًا إلى مبادئ منطقية وتجريبية.

تعريف العقل: العقل في الأصل مصدر عقلت البعير أَعْقِلِه عقلاً إذ منعته من الشرود بحبل يشد في ركبته.

وأما في الإصطلاح فهو _ كما يقول الفيروز بادي _: نور روحاني، به تدرك النفس العلوم الضرورية، والنظرية. هذا تعريف العقل عند صاحب القاموس، وهو من أجمع التعاريف وأحسنها.

وعرفه الطوفي رحمه الله بقوله: " قوة غريزية يُتهيأ بها لإدراك المعلومات التصويرية، والتصديقية، وقيل: علم من العلوم الضرورية "[1].

التعريف الفلسفي عند سبينوزا:

العقل في فلسفة سبينوزا ليس فقط أداة للمعرفة، بل هو العامل الأساسي الذي يحدد الحرية. الإنسان يتصرف بحرية حقيقية عندما يطيع العقل، الذي بدوره يتوافق مع قوانين الطبيعة. يرفض سبينوزا أي تفسيرات دينية تخرج عن إطار العقل، ويعتبر أن جميع الظواهر يجب أن تُفهم عقلانيًا، بما في ذلك النصوص المقدسة.

مقاربات فلسفية:

ديكارت: يعتبر العقل الأساس الذي يُبنى عليه كل شيء، لكن ديكارت يضع الدين كمصدر للحقيقة الأخلاقية. " إذ يرى ديكارت أن العقل أو الصواب هو أعدل أشياء الكون بين الناس... بل هو دليل على أن المقدرة على الحكم الجيد والتمييز بين

[1] المرجع نفسه ص127

الحقيقة والخطأ وهي ما يسمي على وجه التحديد صوابا أوعقلا... وهو الشيء الوحيد الذي يجعل منا بشرا...، بمعنى أن العقل عبارة على مرشد أوموجه يجعل من خلاله الإنسان يميز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل باعتبار أن هذه القيم تميز هي الآخر هذا الإنسان عن الحيوانات مما تجعله بشرا عقلا، ذلك أن الخالق قد عدل بين البشر بشأن تقسيم ملكة العقل فجوهر فعل التعقل كملكة ربانية."[1]

الجرجاني: العقل هو" جوهر مجرد عن المادة في ذاته، مقارن لها في فعله وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله: أنا، وقيل: العقل جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان، وقيل: العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل، وقيل: العقل جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير... والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الغانيات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة."[2]

العقل عند سبينوزا:

يعتبر العقل بالنسبة لسبينوزا المصدر الأساسي للمعرفة الحقيقية. فهو الوسيلة التي تمكّن الإنسان من فهم القوانين الطبيعية والإلهية على حد سواء.

يقول في هذا السياق:" بينا أن قدرة العقل لا تذهب إلى الحد الذي يستطيع معه أن يُقرر إذا كان الناس يستطيعون الحصول على السعادة بالطاعة وحدها دون معرفة بالأشياء. وفي المقابل، لا يدّعي اللاهوت إلا هذا؛ فهو لا يوحي إلا بالطاعة، ولا يريد أو يستطيع أن ينفع بشيء يتعارض مع العقل." [3]

---

[1] قانة مسلمة، علاقة العقل بالدين عند ديكارت، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، اشراف بن قويدر عاشور ،2014/2015، ص5.

[2] محمد على منصور مزروعه، العقل وأوهامه عند الجاحظ والغزالي وفرنسس بيكون، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين – القاهرة العدد 03 المجلد 09، ص25.

[3] باروخ سبينوزا، مصدر سابق، ص360.

"فاللاهوت، كما بيّنا في الفصل السابق، يحدد عقائد الإيمان على قدر ما تقتضيه الحاجة العملية، ويترك للعقل – الذي هو نور الفكر، والذي بدونه لا يرى الإنسان إلا الأحلام والخيالات – مهمة تحديد المعنى الدقيق الذي ينبغي أن تُفهم به تلك العقائد بغية تحقيقها."[1]

" وأعني باللاهوت هنا، على وجه التحديد، الوحي من حيث يشير إلى الغاية التي قلنا إن الكتاب يرمي إليها (أي بواعث الخضوع وطرقه، أي عقائد الإيمان الصالحة المؤدية إلى التقوى والمحبة). وهذه، في حقيقتها، تمثل ما يمكن أن نسميه "حقيقة كلام الله"، والتي لا تنحصر في عدد معيّن من الكتب (انظري في هذا الموضوع الفصل الثاني عشر)."[2]

"وبهذا المعنى الدقيق، "يتفق اللاهوت – إذا تأملنا وصاياه وتعاليمه في الحياة – اتفاقًا تامًا مع العقل، كما أن غايته لا تتعارض مع غاية العقل، وبالتالي فهو شامل ويخاطب جميع الناس. أما بالنسبة إلى الكتاب بوجه عام، فقد بيّنا في الفصل السابع أن تحديد معناه يجب أن يقوم على النقد التاريخي وحده، لا على تاريخ الطبيعة الشامل الذي هو المعطى العقلي. الاساسي الفلسفة وحدها."[3]

يؤكد سبينوزا أن غاية اللاهوت ليست المعرفة النظرية للأشياء، بل الطاعة، التي تعتبر أساس التقوى. وهذا يعني أن اللاهوت يعالج الجانب العملي من حياة الإنسان ويضع المبادئ الأخلاقية اللازمة للتعايش الإجتماعي.

ويشير سبينوزا إلى أن العقل، الذي يعتبر "نور الفكر"، له دور محوري في فهم العقائد الدينية بشكل أعمق فهو يرى أن بدون العقل، تصبح العقائد مجرد "أحلام

[1] مصدر نفسه ص360.361
[2] مصدر نفسه ص361.
[3] باروخ سبينوزا، مصدر سبق ذكره، ص361.

وخيالات" بعيدة عن الحقيقة. ومن هنا، يترك اللاهوت للعقل مهمة تحديد المعاني الدقيقة للعقائد الدينية بغية الوصول إلى حقيقتها.

بهذا التصور، يضع سبينوزا حلاً وسطاً بين العقل والإيمان، فهو لا يرفض الإيمان الديني، ولكنه يضعه ضمن إطار يخدم الإنسان من خلال تعزيز الأخلاق والسلوكيات التي تتوافق مع العقل. اللاهوت عند سبينوزا شامل، يخاطب جميع الناس بغض النظر عن مستوى إدراكهم العقلي، ولكنه يعتمد على العقل في إظهار الحقيقة الكامنة في تعاليمه.

ج/ مفهوم السياسة عند سبينوزا

لغة:

جاء في **لسان العرب** في: " مادة سوس ما يفيد أن سوسه القوم جعلوه يسوسهم. ويقال: سوس فلان أمر بني فلان، أي كلف سياسته مسست الرعية وسوس الرجل أمور الناس على ما لم يسم فاعله، إذا ملك أمرهم؛ والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه"[1]

اصطلاحا:

السياسة: هي "علم الحكومة وفن علاقات الحكم وتطلق على مجموعة تتولى نظم الدولة أو طريقة التي يسلكها الحاكم، المعنى أنها علم يهتم بقضايا الدولة والعلاقات التي تخص الحكم وتدرس المبادئ المرتبطة بالدولة والطريقة التي يتبعها الحاكم في تسيير شؤون الحكم أوهي علم الدولة والسياسة، لغة القيام بشؤون الرعاية واستخدام العرب لفظ السياسة، بمعنى الإرشاد والهداية؛ بمعنى أنها لفظ بدل على التسيير

[1]ليس صوفية، طيار نور الهدى، الفلسفة السياسية عند باروخ سبينوزا، مذكرة ماستر،2023-2024، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، اشراف كافي فريدة، ص8.

الصحيح للدولة لضمان حماية المواطنين داخل الدولة ، بمعنى آخر أن السياسة هي عبارة عن علم و فن و سلوك و تدبير وإرشاد إلى عملية ما، كما يرى بعض أهل الاختصاص بأنها تشير إلى الطبع والخليفة "[1]

تُعتبر السياسة عند باروخ سبينوزا مجالًا أساسيًا لتنظيم العلاقات بين الأفراد داخل المجتمع. يرفض سبينوزا النظرة المثالية التي تربط السياسة بالأخلاق المطلقة، ويرى أن السياسة يجب أن تُبنى على فهم الطبيعة البشرية كما هي لا كما ينبغي أن تكون في فلسفته، يؤكد على أن الهدف الرئيسي للسياسة هو تحقيق السلام والإستقرار، وذلك من خلال بناء مؤسسات تُحافظ على النظام وتُحقق العدالة. حيث أن سبينوزا يرى أن الدولة هي الأداة التي تحفظ حقوق الأفراد وتؤمن حرياتهم، شريطة أن تعمل وفق مبادئ العقل والعدالة.

د/ مفهوم الحرية عند سبينوزا

لغة:

(بالفتح) مصدر من حر يحر إذا صار جزا والسم (الحرية)، و(حرره) أي أعتقه، (تحرر)

العبد : صار حراء والشعب تخلص من الاستعمار وحكم الأجنبي (الحر) الخالص من الشوائب والخالص من الرق. (الحرية) الخلوص من الشوائب أو الرق أو اللوم وفي اللغة الانجليزية، الحرية: Liberty

[1] مذكرة نفسها ص9.

"The state of being free from coercion or restraint;Liberty, independence;The power or right to act, speak, or think as one wants — without hindrance or restraint.."**

القدرة أوالحق في الفعل أو التفكير كما يريد الشخص دون عراقيل وقيود العنف من العبودية أوالأسر والسجن وغياب القهر والفسر والإجبار والإرغام في الفعل أو الاختيار أو القرار وهي الإستقلال والاكتفاء الذاتي.[1]

2 اصطلاحا:

يعرف الفقه الحرية بأنها الاعتراف للفرد بالقدرة على التصرف في الدائرة المحدد له بما لا يضر الآخرين، أو يهدد النظام الجماعي العام؛ بمعنى أن الحرية تقيد بقيدين: الأمن القومي والسلام الجماعي. " الحرية خاصة الموجود ، الخالص من القيود ، العامل بإرادته أو طبيعته. من قبيل ذلك قولهم : تظهر حرية الجسم الساقط في هبوطه إلى مركز الأرض، وفقاً لطبيعته بسرعة متناسبة مع الزمان ، إلا إذا صادف في طريقه عائقاً يمنع سقوطه "[2]

يعرفها لا لاند: "أن المرء يمتلك حرية شخصية تتيح له فعل ما يشاء طالما أن ذلك الفعل لا يتعارض مع القوانين والأنظمة المعمول بها المرء حر في أن يفعل كل ما لا يمنعه القانون

يرى لا لاند أن الحرية تفيد في معناها الأولي: حالة إنسان ليس عبداً أو مقيداً؛ وهي كذلك أن يقوم شخص بما يشاء، وليس بما يريده شخص آخر؛ إنها غياب

**تعني حالة التحرر من الإكراه أوالقيد، الحرية، الاستقلال، القوة أوالحق في التصرف او التحدث أوالتفكير كما يشاء الشخص دون عائق او تقييد.

[1] ليس صوفية، طيارنورالهدى، الفلسفة السياسية عند باروخ سبينوزا. مذكرة ماستر،2023-2024، جامعة 8 ماي 1945قالمة، اشراف كافي فريدة ص87

[2] جميل صليبا، *المعجم الفلسفي*، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط.1، ص. 462.

الإكـراه الخـارجي. انطلاقـاً مـن هـذا التصـور تفـرع معنـى الكلمـة إلـى ثلاثـة منـاحي مختلفة:[1]

– بالمماثلـة والتعمـيم، إذ تقـال الحريـة علـى موجـودات أخـرى غيـر الإنسـان، إلـى درجـة أنها تقال على موجودات جامدة.

– مـن الناحيـة السياسـية والاجتماعيـة، حيـث تميـز وضـعاً محـدداً للمـواطن فـي علاقتـه مع المجتمع والدولة.

– تطلـق للدلالـة علـى الاسـتقلال الـداخلي للإنسـان، عنـدما يقـال بـأن الإنسـان تسـيِّره قـوى ومبـادئ غريبـة عنـه، تجبـره علـى منـوال سـيد مسـتبد، أو تغريـه علـى شـاكلة مخـادع أنـاني؛ كمـا تقـال أيضـاً علـى اللاحتميـة، فـي الوقـت الـذي تكـون فيـه الأداة الوحيدة لاستبعاد كل ما لا يندرج ضمن فعل الفرد."[2]

أمـا فـي معناهـا العـام: فهـي حالـة الكـائن الـذي لا يخضـع لأي إكـراه، والـذي يتصـرف طبقـاً لإرادتـه وطبيعتـه. ومـن الناحيـة السياسـية والاجتماعيـة، تـدل كلمتـا "حـر" و"حريـة" علـى غيـاب إكـراه اجتمـاعي ملـزم للفـرد. وتبعـاً لـذلك فـإن الفـرد يكـون حـراً فـي فعـل كـل مـا لا يمنعـه القـانون، وحـراً فـي رفـض القيـام بكـل مـا لا يـدعوه إلـى فعلـه. إن تبـادل الأفكـار والقناعـات يمـثلان أهـم الحقـوق المخولـة للإنسـان؛ إذ مـن حـق كـل مـواطن أن يـتكلم ويكتـب وينشـر بحريـة، شـريطة عـدم تجـاوز هـذه الحريـة فـي الحـالات التـي يحددها القانون.

وأمـا مـن الناحيـة النفسـية والأخلاقيـة فهـي: حالـة الإنسـان الـذي يتصـرف عـن وعـي وتعقـل وهـو يعـرف ذلـك جيـداً؛ والفـرد الـذي يعـرف مـاذا يريـد، ولمـاذا، والـذي لا يتصـرف بطـيش أو رعونـة. وتقـال أيضـاً فـي مقابـل الانفعـال والغرائـز الحيوانيـة والجهـل

[1] ليس صوفية، طيارنورالهدى، الفلسفة السياسية عند باروخ سبينوزا ص 88
[2] المذكرة نفسها، ص 88.

والدوافع العابرة؛ فالحرية، هنا، هي: حالة الكائن الإنساني الذي يظهر طبيعته الخاصة في أفعاله وسلوكاته، من حيث كونها طبيعة متسمة بالعقل الأخلاقي. وبذلك تصبح كلمة الحرية لفظاً معيارياً، على ضوئها يمكن للطبيعة الإنسانية أن تتحكم. "وعند اسبينوزا نجد نفس المفهوم للحرية وهو الخلو من القسر Liberta Sacoactione – يقول اسبينوزا: وهذا الشيء يدعى حراً إذا كان يوجد وفقاً لضرورة وحدها، ويعين ذاته بذاته للفعل، (Ethical,def7) ووفقا لهذا التعريف فإن الله هو وحده الحر، أما الانسان فغير حر، لأن الله هو الذي يعين نفسه بنفسه، أما الانسان فهو بضعة من الطبيعة ويتحرك بانفعالات خارجية ومع ذلك فإن الانسان يستطيع – على خلاف ما يرى هوبز – أن يتحرر إذا أحال أفكاره غير الواضحة إلى واضحة، وأحال انفعالاته الى حب الله"[1]

" إن الحرية هي العامل الأساسي لتقدم العلوم والفنون. فلو حدث أن فرضت السلطة على المواطنين أفكارها، فإنها لا تستطيع أن تجعل أفكارهم تطابق أفكارها بالفعل، بل ينتهي الأمر بالمواطنين إلى النفاق، فيقولون ما لا يعلمونا، ويضيع حسن النية، ويسود الخداع والمحاباة، ويعمّ الانحطاط. فكلما سُلبت الحرية من الناس، ازداد السقوط، وكلما لجأ الأفراد إلى أعماقهم باحثين عن حريتهم المكبوتة، فاض بهم الكيل، وناصبوا السلطة العداء علنًا، وأثاروا القلاقل والفتن. فهذه هي الطبيعة الإنسانية، وحينها، يصبح القانون – بدلًا من أن يكون أداة للعدل – سببًا في إثارة المصلحين لمواجهة الظلم في حجمه الحقيقي. وقد يتحوّل تطبيق القانون إلى أعظم خطر يهدد الدولة، خاصة حين يرفضه الأحرار الساعون إلى العدالة، بينما يتملقه الانتهازيون لتحقيق مصالحهم." ويصعب على السلطة حينها أن تتراجع عمّا هي فيه. وكما نشأت الفرق والطوائف من قبل، نشأت لأن السلطة حاولت أن

[1]بدوي عبد الرحمان: موسوعة الفلسفة، ج 1، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 1984، ص460

تضع حدًا لحرية الفكر. إن القوانين ينبغي أن تهدف إلى تهدئة المشاعر، لا إلى إثارتها؛ **أفليس من الأجدر إذن أن تُراعى عواطف الجماهير، بدلًا من فرض قوانين عاجزة على كبحها؟** ففي مثل هذه الدول، يتحوّل المواطنون إلى أعداء لدولتهم، لا لأنهم ينقصهم الولاء، بل لأنهم لا يعرفون الجبن، ولا يهابون الموت. فيسقط الشهداء، ويلاحق العار السلطات، إذ لا يطلب المواطنون العفو، بل يقبلون الشهادة دفاعًا عن غاية نبيلة، ويُصبحون شهداء الحرية. وفي الوقت الذي يتبعهم فيه بعض المواطنين، يصفّق آخرون للجلادين."[1]

اي أن للحرية دور في تطور العلوم والفنون وتأثيرها على المجتمع. يوضح أن فرض السلطة أفكارها بالقوة يؤدي إلى نتائج عكسية، حيث ينشر النفاق والخداع بين المواطنين بدلًا من تعزيز الصدق والابتكار. عندما تُسلب الحرية، يلجأ الأفراد إلى التمرد الداخلي، وقد يتحول ذلك إلى عداء علني ضد السلطة، مما يثير القلاقل ويُضعف استقرار الدولة. كما يشير النص إلى أن القوانين ينبغي أن تهدف إلى تهدئة المشاعر وحماية الحرية، وليس كبتها. فحين تقمع السلطة حرية الفكر، تُنتج الانقسامات والصراعات بدلًا من الوحدة. في ظل ذلك، يصبح المواطنون أعداء الدولة، ويفضلون التضحية بحياتهم على العيش في ظل الظلم، مما يؤدي إلى نشوء أبطال للحرية وازدياد الفجوة بين الشعب والسلطة.

الحرية في فلسفة سبينوزا ليست مجرد التحرر من القيود الخارجية، بل هي التحرر من الجهل والانقياد للأهواء. فالإنسان الحر، وفقًا له، هو من يعيش وفق قوانين العقل ويفهم ضروريات الطبيعة، مما يجعله قادرًا على اتخاذ قراراته بشكل عقلاني.

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره. ص105.

يرى سبينوزا أن الحرية الحقيقية تتحقق عندما يعيش الأفراد في مجتمع يُتيح لهم ممارسة حقوقهم ضمن إطار قانوني يضمن المصلحة العامة. الدولة، في هذا السياق، تُعتبر شرطًا لتحقيق الحرية لأنها تحمي الأفراد من الفوضى والصراع.

هـ/ السلطة (Power):

مفهوم السلطة عند سبينوزا:

التعريف اللغوي:

السلطة هي: " لقوة والقدرة على الشيء والسلطان الذي يكون للإنسان على غيره جمع سلطات."[1]

التعريف الاصطلاحي:

السلطة تشير إلى القدرة على اتخاذ القرارات وتنفيذ القوانين التي تؤثر في الأفراد والمجتمع. في السياقات السياسية، السلطة هي القوة التي يمتلكها الحاكم أو الدولة لتوجيه الأفراد وتنظيم العلاقات بينهم.

التعريف الفلسفي عند سبينوزا:

في فلسفة سبينوزا، السلطة ليست مجرد قدرة سياسية أو قوة ذات طابع قسري، بل هي قدرة الإنسان على التصرف وفقًا لعقله وحكمته. السلطة الحقيقية هي قدرة

[1] مجلة بحوث كلية الآداب. د. محمد يوسف. مفهوم السلطة في فلسفة ميشيل فوكو. طنطا. مصر. رسالة دكتوراة قسم فلسفة ص1133

الأفراد على العيش في حرية، من خلال عقلهم ورغبتهم في تحقيق الخير العام. سبينوزا يرفض السلطات التي تُفرض بالقوة، ويعتبر أن السلطة التي تتنافى مع الحرية الفردية والعقل لا يمكن أن تُعتبر شرعية. على هذا النحو، السلطة عند سبينوزا ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمصلحة العامة والعدالة.

مقاربات فلسفية:

فوكو: "يتناول السلطة في إطار المعرفة والقدرة على التحكم في الأفراد. يرى أن السلطة لا تقتصر فقط على القوانين، بل تمتد إلى جميع أشكال الهيمنة الاجتماعية؛ تعني غالبية حالات القيادة تطبق السلطة استنادا الى قوة اجتماعية معينة [1]"

سبينوزا: يختلف عن فوكو في أنه يربط السلطة بالعقل والحريات الفردية، ويرى أن السلطة التي تقيّد هذه الحريات ليست شرعية. السلطة عند سبينوزا ليست مجرد قوة قمعية، بل هي قوة شرعية تنبع من توافق الأفراد على الخضوع لها. يُعرف السلطة على أنها الوسيلة التي تحافظ بها الدولة على النظام وتُحقق الأهداف المشتركة للمجتمع، سبينوزا يربط بين السلطة والعقل، حيث يرى أن السلطة تكون شرعية فقط إذا كانت تعمل لتحقيق الخير العام، وتُراعي حقوق الأفراد وحرياتهم. يُؤكد كذلك على أن السلطة يجب أن تكون محدودة بالقانون، حتى لا تتحول إلى استبداد.

و/ مفهوم الحق عند سبينوزا:

التعريف اللغوي:

الحق لغةً:" للحق الكثير من المَعاني في معاجم اللغة ومنها: القاموس المحيط: يطلق الحق على المال والملك والموجود الثابت، ويُقال حق الأمر: أي وجب ووقع

[1] المرجع نفسه ص 1133

بـلا شـك. أسـاس البلاغـة: حـق الله الأمـر حقـاً أي أثبتـه وأوجبـه. لسـان العـرب: الحـق هـو نقـيض الباطـل. بصـائر ذوي التمييـز فـي لطـائف الكتـاب العزيـز: أصـل الحـق هـو المطابقة والموافقة. المعجم الوسيط يطلق الحق على الصحة، والثبوت، والصدق"[1].

التعريف الاصطلاحي:

الحـق هـو مـا يُعتبـر مشـروعًا فـي إطـار القـوانين والأنظمـة الاجتماعيـة، يعبـر عـن الحقوق التي تضمنها القوانين الوضعية أو الطبيعية للأفراد في المجتمع.

التعريف الفلسفي عند سبينوزا:

سـبينوزا يميـز بـين نـوعين مـن الحـق: الحـق الطبيعـي والحـق المـدني. الحـق الطبيعـي هـو الحـق الـذي يمتلكـه كـل فـرد بنـاءً علـى كونـه جـزءًا مـن الطبيعـة، وهـو الحـق فـي الحفـاظ علـى نفسـه ووجـوده. أمـا الحـق المـدني فيتمثـل فـي الحقـوق التـي يحصـل عليهـا الأفـراد عنـدما ينضـمون إلـى مجتمـع سياسـي أو دولـة. فـي هـذا السـياق، يـرى سـبينوزا أن الأفـراد يتنـازلون عـن جـزء مـن حقـوقهم الطبيعيـة مقابـل الحصـول علـى الحمايـة فـي إطار الدولة، ولكن يجب أن تبقى الحقوق الأساسية محفوظة وفقًا للعقل والطبيعة.

مقاربات فلسفية:

هـوبز: يـرى أن الحـق الطبيعـي هـو الحـق الكامـل للفـرد فـي التصـرف بحريـة دون قيـود مـن أي نـوع. ومـع ذلـك، "يميـز هـوبز بـين حـالتين حالـة الطبيعـة وحالـة الحكـم السياسـي، فحالـة الطبيعـة هـي حالـة فوضـى وحـرب والنـاس متسـاوون بالطبيعـة. وهنـا هـذه المسـاواة ينبثـق عنهـا الحـذر، وعـن الحـذر تنشـأ الحـرب بـين النـاس، ولا وجـود لعادل أو جائر ولا وجود لملكية ولا وجود للصناعة أو العلم ولا المجتمع " [2]

[1] https://mawdoo3.com/17-05-2025/22:27

[2] د. نورة عابد، مفهوم الحق في الفلسفة الحديثة، مخبر الفلسفة وتاريخها – جامعة وهران 2 محمد بن احمد، ص06

يقول هويز: " – ينبغي مع ذلك التمييز بين الحق والقانون ذلك أن الحق يعتمد الحرية، حرية المرء في أن يفعل فعلا ما أو أن يمتنع عن فعله. أما القانون فهو الذي يرتبط بواحد منهما دون الآخر (أي الفعل أو الامتناع عن الفعل)، فهو الذي يحدد ويعين ومن ثم فالقانون والحق يختلفان اختلافا كبيرا مثلما يختلف الإلزام والحرية من حيث أنهما يتناقضان في الموضوع"[1]

"ويوجد عند هويز حق طبيعي وقوانين طبيعية، لكنه يختلف مع الفلاسفة الآخرين في مدلولها، فحق الطبيعة عند هويز يعني غريزة البقاء وهي حرية كل فرد في استعمال قدراته الذاتية كما يشاء من أجل حفظ طبيعته الذاتية أمام القانون الطبيعي فهو حكمه أو قاعدة عامة مكتشفة من قبل العقل وتجد هويز يختلف تماما مع أرسطو فالمجتمع السياسي ليس واقعة طبيعية بل ثمرة ميثاق إرادي من صنع الأفراد."[2]

سبينوزا: يرفض المفهوم الذي يراه هوبز لحقوق الفرد المطلقة، ويؤكد أن الحق المدني، أي الحقوق المقررة وفقًا للعقل والقوانين الاجتماعية، هو ما يضمن وجود الدولة المستقرة.

الحق عند سبينوزا ينبع من الطبيعة، حيث يعتبر أن لكل فرد حقًا طبيعيًا في الحفاظ على وجوده والسعي لتحقيق مصلحته. هذا الحق مرتبط بقدرة الفرد، مما يعني أن الأفراد يمارسون حقوقهم بما يتناسب مع قوتهم العقلية والجسدية، يتضح هذا خلال قول سبينوزا:" أعني بالحق الطبيعي وبالتنظيم الطبيعي مجرد القواعد الذي تتميز بها طبيعة كل فرد، وهي القواعد التي ندرك بها أن كل موجود يتحدد وجوده وسلوكه حتميا على نحو معين، فمثلا يتحتم على الأسماك، بحكم طبيعتها أن تعوم وأن

[1] المرجع نفسه ص 02
[2] المرجع نفسه ص07

يأكل الكبير منها الصغير، وبالتالي تستمتع الأسماك بالماء، ويأكل الكبير منها الصغير طبقا لقانون طبيعي مطلق"[1]

في المجتمع المنظم، يتم تقييد الحقوق الطبيعية ضمن إطار القوانين التي تضعها الدولة، بحيث تُحقق التوازن بين حقوق الأفراد والمصلحة العامة. بهذا الشكل، يتحول الحق الطبيعي إلى حق مدني، ويُصبح ممارسة الحقوق مُقيدًا بالقوانين لضمان العيش المشترك، ينطلق اسبينوزا في فلسفته النظرية والعملية من الطبيعة، بما هي جوهر كلي واحد، يوجد بذاته ولا يتصور إلا من خلال ذاته، أي من الطبيعة بما هي كيان مستقل له قوانينه الداخلية، ولا يخضع لأية غاية خارجية، ولا يمكن أن يوجد أو يتصور خارجه أي جوهر آخر. ومادامت الطبيعة بهذا المعنى الشامل هي الجوهر الوحيد، فإن الكائنات الطبيعية جميعها ما هي إلا تحديدات جزئية تستمد قدرتها على الوجود والفعل لا من ماهيتها، بل من قدرة الطبيعة الأزلية. فالطبيعة بالمعنى الكوني يحكمها نظام ضروري داخلي، ومعنى ذلك أن قوانين الطبيعة تحكم كل ما يجري أو يحدث داخل العالم. هذا النظام الكوني الذي يحكم الطبيعة بأكملها هو ما يسميه اسبينوزا حق الطبيعة، أو الكوناتوس (conatus). إن حق الطبيعة إنما هو قوة الطبيعة نفسها، وقوة الطبيعة هذه، إنما هي قوة الله الذي له حق سيادي على جميع الأشياء(droit,souverain)[2]؛ "الكوناتوس"***حسب سبينوزا حقيقة كونية، بموجبها تسعى الأشياء الجزئية بما هي

---

[1] المرجع نفسه ص03

[2]محمد منادي اردیس، من الطبيعة الى الدولة: مفهوم الحق في فلسفة سبينوزا الازمنة الحديثة (مجلة فلسفية فصيلة تعنى بشؤون الفكر الثقافة، رقم9، 2015 ص51

***يُعد مفهوم الكوناتوس فكرة مركزية في فلسفة سبينوزا، إذ يُعبّر عن القوة الأساسية التي تحرك الطبيعة والكون بأسره. فالكوناتوس ليس مجرد ميل عارض، بل هو حقيقة كونية أصيلة، أي جزء لا يتجزأ من الواقع الكوني الذي يحكم كل شيء. انطلاقًا من هذا المفهوم، يرى سبينوزا أن الكائنات الجزئية – أي الأفراد والظواهر الفردية في الطبيعة – تسعى دومًا إلى الاستمرار في الوجود والحفاظ عليه، بوصفه هدفًا غريزيًا ومبدأً طبيعيًا أصيلاً. ويُعد "حق الطبيعة ونظامها" عند سبينوزا هو مجموع القواعد الطبيعية التي تحكم وجود الفرد وتصرفه، إذ لا ينحصر هذا الحق في الكون ككل، بل يشمل أيضًا كل فرد على حدة. فكل كائن، بصفته جزءًا من الطبيعة، يخضع لهذه القوانين، ويتعين عليه أن يوجد ويتصرف وفقًا لها. وبالتالي، يبرز النظام الطبيعي كمرجعية أساسية لسلوك الأفراد، إذ يمثل نمطًا عامًا للحياة يجب اتباعه، ويقوم على مبدأ الحفاظ على الذات والسعي إلى تحقيق الغايات الحيوية والتكيّف مع البيئة المحيطة.

أحوال تعبر بكيفية محددة عن قدرة الله بكل ما أوتيت من قوة وجهد إلى الاستمرار في وجودها.

ثانيا: **تأثير اللاهوت على السياسة:**

1- نقد الحكم الإلهي (الثيوقراطي):

يتناول سبينوزا في تحليله للنظام السياسي الديني نقداً عميقاً لفكرة الحكم الإلهي ويُبرز عدم صلاحيتها في العصر الحديث، مستنداً إلى دراسة تاريخ العبرانيين وعلاقة الدين بالدولة؛ "هل يصلح الحكم الإلهي (الثيوقراطي) في الظروف الحاضرة؟ لو أراد الناس تفويض حقوقهم الله لكان عليهم عقد حلف معه، ثم قبول الله له! ولكن الله أخبرنا على لسان الحواريين بأن حلفه لم يعد حسيا لشعب معين بل روحيا في قلوب الناس للإنسانية جمعاء. كما ان نظام الحكم الإلهي لا يصلح الا لشعب مغلق على نفسه. مقطوع الصلة بينه وبين سائر الشعوب. لذلك فإن هذا النظام لا يصلح في الظروف الانسانية الحاضرة. لم تكن غاية سبينوزا من دراسة تاريخ العبرانيين مجرد البحث التاريخي عن أسباب سقوط دولتهم، بل كانت غايته الانتهاء الى هذه النتيجة وهي أن النظام الإلهي لا يصلح في الظروف الحاضرة نظرا لخلطه بين الدين والدولة أو بين السلطات الدينية والسلطات السياسية (11). فلا يعني حكم الله استبعاد كل حكم انساني يتمتع بسلطة سياسية مطلقة. فبعد أن

فمن خلال هذه القواعد، يُمكن للفرد أن يتطور ككائن حي، مدفوعًا باحتياجات طبيعية مثل الغذاء، المأوى، العلاقات الاجتماعية، والتكيّف مع المتغيرات البيئية. وهكذا، لا يُعد الفرد مجرد جزء من الطبيعة، بل هو كائن يتأثر بنظامها ويخضع لقوانينها، ويتصرف تبعًا لمبادئها التي تحكم كل ما هو موجود في الكون.

فوض العبرانيون حقهم الله وضعوا ثقتهم في موسى من أجل تنظيم شئون حياتهم، ولم يكن لسواه هذا الحق أما رؤساء الأسباط والقضاة فقد كان لهم الحق في الفصل بين المنازعات أمام المحاكم"[1]؛ يوضح النص أن النظام الثيوقراطي الذي يعتمد على تفويض السلطة من الله لا يمكن أن يصلح في الظروف الحالية. حيث يعتبر هذا النظام معزولاً عن الشعب، مما يخلق فجوة بين الحاكم والمحكومين؛ سبينوزا يرى أن هذا النوع من الأنظمة ينتهي دائمًا بالاستبداد، حيث يتحول الدين إلى أداة في يد السلطة لضمان الطاعة المطلقة.

2- الخلط بين الدين والدولة:

"لم تظهر الفرق الدينية الا في وقت متأخر عندما استولى الأحبار على السلطة في الدولة، فبدأ الدين بالانهيار، وسادته الخرافة، وضاع التفسير الحقيقي للقوانين بل وفق الأخبار بين هذه التفسيرات وبين الأفعال المحرمة أو المكروهة، وبدأ الناس في تملق الأحبار وعم الفساد في الدين"[2]؛ يُبرز النص الضرر الناجم عن الدمج بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. فمن خلال التاريخ، أدى هذا الخلط إلى استغلال الدين لتبرير قمع الشعب وإضفاء الشرعية على الحكام المستبدين، مثال ذلك هو السيطرة المطلقة التي يمنحها الدين للحكام، ما يؤدي إلى تعطيل العدالة، وفرض قوانين ظالمة، ودعم التعصب.

3- مساوئ تسلط رجال الدين:

يرى سبينوزا أن الأنبياء (أو من يتحدثون باسم الدين) لعبوا دورًا سلبيًا في المجتمع، إذ دفعوا الناس نحو التطرف بدل إصلاحهم بالعقل، ورفضوا التساهل مع الملوك حتى لو كانوا مؤمنين، ما أدى إلى صراعات دينية وسياسية. في المقابل، نجح

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره. ص96(نقلا عن مقدمة الكتاب).
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة. مصدر سبق ذكره. ص96

الملوك في كسب طاعة الناس بسهولة؛ تجلى هذا في قوله: " دفع الأنبياء الناس الى التطرف بدلا من تقويمهم في حين استطاع الملوك استمالتهم دون أدنى مقاومة، لم يتسامح الأنبياء معهم حتى مع أكثر الملوك ايمانا إذا كان سلوكهم مناقضا للدين، أي أن الأنبياء أضروا بالدين أكثر مما نفعوه."[1]

يُشير سبينوزا إلى أن الحفاظ على الدين والدولة يستلزم منع الحكّام من الحكم على الأفعال دينيًا أو أخلاقيًا، لأن هذا الحق، حتى عندما مُنح للأنبياء، ألحق ضررًا بالطرفين. فكيف يُمنح لمن هم أقل حكمة؟ لذا، ينبغي حصر هذا التمييز في مجال العقل والفلسفة، لا في يد السلطة السياسية " مراعاة لمصلحة الدين والدولة لا ينبغي اعطاء أصحاب السلطة حق التمييز بين الأفعال والحكم عليها. فاذا كان هذا الحق لم يعط حتى الأنبياء دون أن يلحق الضرر بالدين والدولة على السواء فالأولى ألا يعطى من هم أقل قدرة منهم."[2]

ينتج الضرر للدين وللدولة " إذا ما أعطى رجال الدين سلطة سياسية في الدولة، ولا ينشأ الاستقرار الا بفصل السلطتين، والحد من سلطة رجال الدين حتى يتفرغوا لأمور الدين وللعقائد السلفية الشائعة"[3]؛ سبينوزا ينتقد رجال الدين الذين يخلطون بين الأفكار الدينية والسياسية، مما يؤدي إلى خلق نظام قمعي يعوق حرية الفكر والتعبير، الدين، في رأي سبينوزا، يصبح أداة استبدادية عندما يُمنح رجال الدين سلطة مطلقة للتدخل في شؤون الدولة.

4- مساهمة اللاهوت في الصراعات الداخلية:

شهدت فترة حكم الشعب نزاعات داخلية لم تلبث أن خمدت وأفضت إلى سلام دائم، لكن ما إن تولّى الملوك السلطة حتى اندلعت حروب متواصلة اتسمت ببشاعة غير

[1] المصدر نفسه. ص96.
[2] المصدر نفسه. ص97
[3] المصدر نفسه. ص97

مسبوقة" نشبت الحروب حباً في العظمة لا من أجل الحرية والسلام. وباستثناء سليمان، دعا الملوك الناس للحروب، وكان الدم تحت العرش. في أثناء حكم الشعب كانت الشرائع قائمة، وكان الأنبياء يحذرون الشعب من مخالفتها، وما ان تم انتخاب الملوك الأول حتى تدخل الأنبياء لإنقاذ الشعب من الموت. لم يظهر قبل عصر الملوك الأنبياء الكذبة على حين شاعوا بعد تنصيب الخضوع الله، واستمروا في العصيان حتى هدم المدينة"[1]؛ يشير النص إلى أن استخدام الدين في السياسة يؤدي غالبًا إلى إشعال الحروب الداخلية والصراعات الطائفية. ففي الفترات التي استخدم فيها اللاهوت لتبرير السلطة، نشأت حروب وصراعات داخلية أدت إلى تقسيم الشعوب وفيها تتم البرهنة على:" أن حرية التفلسف لا تمثل خطرا على التقوى أو على سلامة الدولة بل إن في القضاء عليها قضاء على سلامة الدولة وعلى التقوى ذاتها في آن واحد"[2]؛ يدعو سبينوزا إلى ضرورة فصل الدين عن السياسة لضمان الحرية الفكرية والاستقرار السياسي، مؤكدًا أن هذا الفصل يتيح للمجتمع التطور بعيدًا عن القيود الدينية المفروضة؛ يُبرز سبينوزا في "رسالة في اللاهوت والسياسة" كيف يمكن أن يؤدي تداخل اللاهوت مع السياسة إلى قمع الحريات الفردية وتعطيل العقل، مما يعيق التطور الديمقراطي ويهدد استقرار الدولة. لذا، يدعو إلى فصل الدين عن السياسة لضمان حرية التفكير والتعبير وتحقيق العدالة في المجتمع.

[1] المصدر نفسه. ص ص96-97
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مرجع سابق ص107

خلاصة:

تُظهر دراسة السياقات الفلسفية والاجتماعية لفلسفة سبينوزا عمق تأثير البيئة السياسية والدينية والاجتماعية التي عاش فيها على تكوين أفكاره. فقد استطاع سبينوزا بعبقريته الفلسفية أن يتجاوز التقاليد الدينية الصارمة، ليقدم رؤية جديدة حول العلاقة بين العقل والدين. كما عكست فلسفته السياسية وعياً عميقاً بأهمية الحرية الفردية وضرورة بناء مجتمع يقوم على العدالة والتسامح.

من خلال تحليل المفاهيم الأساسية في فلسفة سبينوزا، يتضح مدى جرأته في نقد السلطات الدينية وتحرير الإنسان من التبعية العمياء للنصوص والتقاليد. كانت رؤيته للسياسة والحرية بمثابة ثورة فكرية تدعو إلى التوفيق بين العقل والإيمان، مما يجعل أفكاره ذات صلة بالتحديات الراهنة التي تواجه المجتمعات الحديثة في سعيها لتحقيق العدالة والسلام.

إن دراسة فلسفة سبينوزا ليست مجرد استعراض لأفكار الماضي، بل هي دعوة لفهم حاضرنا بشكل أعمق، حيث تبقى أفكاره حول العقل، الحرية، والسياسة مصدر إلهام للفكر الإنساني المعاصر.

من خلال هذه الدراسة، نجد أن باروخ سبينوزا لم يكن مجرد فيلسوف نظري، بل مفكراً سعى لفهم الإنسان والمجتمع في إطار شمولي، يتجاوز حدود الدين والسياسة التقليدية. طرحه الجريء لمفاهيم اللاهوت والعقل والسياسة والحرية يمثل تحولاً كبيراً في الفكر الفلسفي، حيث حاول كسر القيود التي فرضتها السلطات الدينية والسياسية على التفكير البشري.

إن تأثير اللاهوت على السياسة كان من أهم المواضيع التي تناولها سبينوزا، حيث رفض استغلال الدين كوسيلة للسيطرة السياسية، ودعا إلى تحرير الفكر الإنساني من الخرافات والسلطات المطلقة. رؤيته لفصل الدين عن السياسة كانت خطوة متقدمة نحو بناء مجتمعات قائمة على العقل والحرية والحق.

تشكل فلسفة سبينوزا مصدر إلهام دائم للفكر الإنساني، حيث تستمر أفكاره في التأثير على مفاهيم الحرية الفردية، العدالة، والتسامح الديني. من خلال فهم هذه الأفكار، يمكننا أن نسعى لتحقيق توازن أفضل بين العقل والدين، وبين الفرد والمجتمع، في سبيل بناء عالم أكثر عدلاً وسلاماً.

الفصل الثاني

قراءة في كتاب "رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا

مدخل:

يشكل كتاب "رسالة في اللاهوت والسياسة" لباروخ سبينوزا محورًا أساسيًا لفهم المشروع الفلسفي الذي سعى إلى التأسيس لعلاقة عقلانية بين الدين والسياسة. فالكتاب لا يكتفي بالنقد، بل يقدم تصورًا جديدًا للدين والدولة قائمًا على العقل والحرية، بعيدًا عن سلطة التأويلات اللاهوتية ومن هنا، ينبثق الإشكال المركزي الذي يدور حوله هذا الفصل: **كيف يعرض سبينوزا العلاقة بين الدين والسياسة في كتابه؟ وما هو تأثير هذا الفصل على استقرار الدولة وحريات الأفراد؟**

في هذا الفصل، نتناول الكتاب من زاويتين: **أولًا**، من حيث الشكل والمضمون، حيث نعرض الفكرة العامة للكتاب وأبرز أفكاره الجزئية التي تُظهر منهجه العقلاني في قراءة النصوص الدينية وموقفه من السلطة السياسية والدينية. و**ثانيًا**، من خلال قراءة فلسفية تحليلية لفصول الكتاب، حيث عملنا على شرحها وتوسيعها، مع الحفاظ على العناوين وتسلسلها كما ورد في النص الأصلي، ما يسمح بتتبع تطور أفكار سبينوزا وفهم الأسس التي بنى عليها دعوته للفصل بين الدين والسياسة.

المبحث الأول

قراءة في الشكل والمضمون

أ/ من ناحية الشكل:

عنوان الكتاب :رسالة في اللاهوت والسياسة

المؤلف الأصلي :باروخ سبينوزا*

المترجم والمقدم :د. حسن حنفي**

المراجع: فؤاد زكريا ***

دار النشر :دار التنوير

البلد: بيروت

الطبعة: الأصلية

سنة النشر (الترجمة العربية): يناير 2008

اللغة: العربية

عدد الصفحات:445 صفحة

*سبينوزا (1632-1677) هو أحد الفلاسفة الهولنديين البارزين في القرن السابع عشر، ويُعد من المؤسسين الرئيسيين للفلسفة الحديثة.
كان سبينوزا فيلسوفًا عقلانيًا وصوفيًا في الوقت نفسه، وله تأثير عميق على الفلسفة السياسية، الميتافيزيقية، والأخلاقية.
يُعرف سبينوزا بموقفه الثوري في التعامل مع الدين والسياسة، حيث كان يسعى لإعادة النظر في العقائد الدينية التقليدية من خلال استخدام العقل والمنهج الفلسفي.

**حسن حنفي (1935-2021) هو أحد المفكرين والفلاسفة المصريين البارزين، وأحد رواد الفلسفة الإسلامية المعاصرة.
يعتبر حنفي من الشخصيات الفكرية المؤثرة في الفكر العربي المعاصر، وقد اشتُهر بمساهماته في الفلسفة الإسلامية، والفكر السياسي، وتفسير التراث الفلسفي والديني. وُلد في القاهرة، ودرس الفلسفة في جامعة القاهرة قبل أن يسافر إلى باريس لدراسة الفلسفة في جامعة السوربون.

***فؤاد زكريا (1927-2010) هو واحد من أبرز المفكرين والفلاسفة المصريين في القرن العشرين، والذي ترك بصمة واضحة في مجال الفلسفة والفكر العلمي العربي. يُعدّ زكريا من المفكرين العقلانيين الذين تميزوا بنقدهم للأنماط الفكرية التقليدية، ودعوا إلى الانفتاح على العلوم الحديثة والفلسفات الغربية، مع التأكيد على أهمية العقل النقدي والتفكير العلمي.

عدد الفصول: عشرين فصل.

الفصول والمباحث بالعناوين المفصلة:

الفصل الأول: النبوة.

الفصل الثاني: الأنبياء.

الفصل الثالث: رسالة العبرانيين وهل كانت هبة النبوة وقفا عليهم.

الفصل الرابع: القانون الإلهي.

الفصل الخامس: السبب في وضع الشعائر والإيمان بالقصص لأي سبب ولأي نوع من الناس.

الفصل السادس: المعجزات.

الفصل السابع: تفسير الكتاب.

الفصل الثامن: البرهنة على الأسفار الخمسة ليست صحيحة.

الفصل التاسع: أبحاث أخرى حول الأسفار.

الفصل العاشر: فحص باقي اسفار العهد القديم.

الفصل احادي عشر: فيما إذا كان الحواريون كتبوا رسائلهم بوصفهم حواريون وانبياء أم بوصفهم معلمين.

الفصل الثاني عشر: في ميثاق الحقيقي للشريعة الإلهية

الفصل الثالث عشر: في أن الكتاب لايحتوي إلاَ على تعاليم يسيرة ولا يحث إلاَ على الطاعة

الفصل الرابع عشر: ماهو الإيمان وأي الناس هم مؤمنون والفصل بين الإيمان والفلسفة

الفصل الخامس عشر: في أن اللاهوت ليس خادما للعقل وأن العقل ليس خادما للاهوت

الفصل السادس عشر: مقومات الدولة –حق الفرد–حق الحاكم

الفصل السابع عشر: دولة العبرانيين مزايا هذه الدولة وأسباب انهيارها

الفصل الثامن عشر: بعض النظريات السياسية في دولة العبرانيين

الفصل التاسع عشر: الطاعة الحقيقية لله تحض الإتفاق بين ممارسة العبادة الدينية وسلامة الدولة

الفصل العشرين: حرية الفكر والتعبير مكفولة لكل فرد في الدولة الحرة.

وصف الغلاف:

غلاف كتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) لباروخ سبينوزا يتميز بتصميم بسيط يميل إلى الألوان الداكنة ويظهر علية لون مائل إلى البني مع تدرجات مما يعطي ايحاء بالقدم أو التاريخية وربما يشير إلى عمق محتوى الكتاب وأهميته الفلسفية.

أ/ الواجهة تحتوي على العنوان بخط واضح وكبير باللونين الأحمر الداكن والأزرق مما يجذب الانتباه الى محور الكتاب الأساسي كما يظهر في الواجهة اسم المترجم والمقدم د.حسن حنفي بالإضافة إلى اسم المراجع د.فؤاد زكريا مما يعزز من قيمة

العمل ويبرز دور الشخصيات التي ساهمت في تقديم الكتاب للجمهور العربي كما يحتوي الغلاف على صورة لسبينوزا في الخلفية لكنها غير واضحة تبدو باهتة ومموهة مما يضيف لمسة تاريخية ويعطي انطباعا بأن الكتاب ت الواجهة تخلو من الزخارف المعقدة وصورة سبينوزا غير واضحة وكان الهدف من التصميم هو التركيز على أفكاره وكتاباته أكثر من شخصه سبينوزا ادة ما يصور بملامح تعكس شخصيته التأملية .

ب/ **الغلاف الخلفي للكتاب:** يتميز بتصميم بسيط وهادئ يطغى علية اللون الأبيض الفاتح مع تفاصيل نصية باللون الأسود ما يعكس طابع الكتاب الفكري والفلسفي، العنوان (رسالة في اللاهوت والسياسة) مكتوب في الأعلى بخط واضح باللون الأحمر الداكن مما يجذب الانتباه إليه.

في منتصف الغلاف الخلفي يوجد نص مطول يشرح فكرة الكتاب وأهدافه ويوضح هذا النص موقف سبينوزا من العلاقة بين الدين والسياسة وتأكيده على أهمية حرية الرأي وضرورة الفصل بين السلطة الدينية والسياسية لضمان حرية التفكير والإيمان الصحيح هذا الوصف يعطي القارئ لمحة عامة عن المحتوى الفكري العميق للكتاب وأفكاره الرئيسية

أسفل النص يظهر شعار دار النشر(التنوير)مع معلومات الإتصال الخاص بها بالإضافة الى رمز في الزاوية السفلية اليسرى التصميم العام للغلاف يوحي بالجدية والعمق الفلسفي للموضوع مما يجعله ملائما لمحتوى الكتاب.

ب/ من ناحية المضمون:

الإشكالية:

تمثل العلاقة بين الدين والسياسة إحدى القضايا المركزية في فكر سبينوزا، حيث يسعى إلى إثبات أن الدولة لا تستقر إلا حين تكون السلطة السياسية مستقلة عن التأويلات الدينية، وأن الحرية الفردية، خصوصًا حرية التفكير والتعبير، لا يمكن أن تزدهر إلاَ في ظل نظام سياسي يحميها من هيمنة المؤسسات الدينية، فهو يرى أن التشريع يجب أن يستند إلى العقل وحده، لأن إخضاع القوانين لتفسيرات دينية متغيرة يؤدي إلى الإستبداد والإنقسام داخل المجتمع. كما أن الدين في نظره يعتمد على الإيمان والخيال، بينما تقوم السياسة على قواعد عقلانية تسعى لضمان الأمن والإستقرار، غير أن هذا الطرح يثير إشكالية أساسية مفادها: **كيف يعرض سبينوزا العلاقة بين الدين والسياسة في كتابه؟ وما هو تأثير هذا الفصل على استقرار الدولة وحريات الأفراد؟**

الفكرة العامة للكتاب:

يسعى سبينوزا في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة، إلى تحليل العلاقة بين الدين والسياسة، متناولًا إشكالية هيمنة التأويلات اللاهوتية على المجال السياسي، ومحاولًا تأسيس نظام سياسي مستقل قائم على العقل بدلًا من الخضوع للنصوص الدينية وتفسيراتها المتعددة، من هذا المنطلق تتجلى رؤيته العقلانية في سعيه إلى تجاوز القراءات التقليدية التي تعتمد على التسليم المطلق، مقابل منهج نقدي يرتكز على دراسة الظواهر الطبيعية والبشرية وفق قواعد منطقية ورياضية مستفيدًا في ذلك من المنهج الهندسي الذي اعتمده في صياغة فلسفته.

ينتقد سبينوزا القراءات اللاهوتية التي تقوم على التصديق غير النقدي، ويرى أنها تُستخدم لترسيخ السلطة الدينية والسياسية على حساب حرية الأفراد وقدرتهم على التفكير المستقل. وبذلك، يقدم قراءة جديدة لمفاهيم أساسية كالدين، المعجزة، والوحي، مستندًا إلى تأويل عقلاني للنصوص المقدسة. وقد أدى هذا الطرح إلى مواجهته بمعارضة شديدة من المؤسسات الدينية، خاصة داخل مجتمعه اليهودي، حيث اعتُبرت أفكاره تهديدًا مباشراً للسلطة الدينية، حتى وصل الأمر بالبعض إلى لإدعاء بأنه كتب رسالته بمساعدة الشيطان. غير أن مشروعه لم يكن يهدف إلى هدم الدين، بل إلى إعادة تأويله بما ينسجم مع مبادئ العقل والتاريخ، محاولًا تحريره من القيود اللاهوتية التي تعيق تطور الفكر البشري وهكذا لا تقتصر رسالة سبينوزا على نقد الظروف الدينية والسياسية لعصره، بل تتجاوز سياقها التاريخي لتشكل نموذجًا فكريًا قابلًا للتطبيق في مختلف الأزمنة. فهي تحمل دعوة صريحة إلى الفصل بين الدين والسياسة على أسس عقلانية، بحيث لا تكون السلطة السياسية خاضعة للتفسيرات الدينية المتغيرة وبذلك، يمكنإعتبار فلسفته إمتدادًا للمنهج الديكارتي في تحليل الظواهر، مع تفرده بتطبيق هذا المنهج على مسائل الدين، وهو ما جعله واحدًا من أكثر الفلاسفة تأثيرًا في تطور الفكر الحديث.

الافكار الجزئية:

يعتمد سبينوزا في رسالة في اللاهوت والسياسة على تحليل نقدي للعلاقة بين الدين والسياسة، متسائلًا عن مدى إمكانية تأسيس مجتمع عقلاني لا يخضع للتأويلات اللاهوتية الجامدة. ومن خلال قراءة متأنية لنصوص الكتاب المقدس، يسعى إلى تفكيك التصورات التقليدية حول النبوة، المعجزات، الإيمان، والدولة، ليعيد صياغتها وفق منهج عقلاني صارم.

في هذا السياق، يطرح سبينوزا تساؤلات جوهرية حول مفهوم النبوة، محاولًا الإنتقال بها من كونها معرفة خارقة إلى كونها ظاهرة قائمة على الخيال والإدراك البشري، وهو ما يقود إلى إعادة النظر في الشعائر الدينية ودورها داخل المجتمع. كما أنه يعيد تفسير المعجزات وفق منظور طبيعي، ناقدًا القراءات اللاهوتية التي تعتمد على الخوارق، مما يدفعه إلى تحليل النصوص المقدسة بمنهج تاريخي لغوي بدلًا من التسليم بصحتها المطلقة.

ولا يتوقف سبينوزا عند نقد التصورات الدينية، بل يتعمق في العلاقة بين الإيمان والعقل، حيث يسعى إلى تجاوز الفهم البسيط للعقيدة، داعيًا إلى لاهوت عقلاني يحرر الفكر الديني من التفسيرات الساذجة. هذا المنهج العقلاني في قراءة الدين ينعكس مباشرة على رؤيته للدولة، إذ يرى أن الحرية السياسية والفكرية لا يمكن أن تتحقق إلا بفصل الدين عن السلطة، مما يسمح للأفراد بممارسة حقوقهم دون تدخل عقائدي يحدّ من استقلاليتهم الفكرية.

انطلاقًا من هذه المحاور، يعالج سبينوزا في كتابه أربع قضايا رئيسية يمكن تلخيصها **كالتالي:**

1. من النبوة إلى الشعائر الدينية (الفصول 119-197)

يستعرض سبينوزا في هذه الفصول، مفاهيمه حول النبوة والتفسير الديني، حيث يرى أن النبوة ليست مقتصرة على شعب معين، بل هي لكل الأمم. في الفصل الأول، يناقش سبينوزا النبوة بوصفها وسيلة لتوصيل الرسائل الإلهية للبشرية، مؤكدًا أن الأنبياء ليسوا معلمين حكماء بل مجرد وسطاء للرسائل الإلهية. ثم ينتقل في الفصل الثاني إلى توضيح دور الأنبياء في نقل هذه الرسائل، مشيرًا إلى أن فهمهم للوحي متأثر ببيئاتهم الثقافية والسياسية.

يتوسع سبينوزا في الفصل الثالث ليطرح تساؤلًا حول ما إذا كانت النبوة قد اقتصرت على العبرانيين، ليؤكد أن النبوة ليست وقفًا عليهم فقط. بعد ذلك، في الفصل الرابع، يشرح العلاقة بين القانون الإلهي وتنظيم الحياة الدينية والاجتماعية، حيث يرى أن القوانين الدينية ليست مطلقة، بل خاضعة للظروف التاريخية المتغيرة. وأخيرًا، في الفصل الخامس، يناقش دور الشعائر الدينية في تعزيز الإيمان والتقوى، معتبرًا إياها وسيلة مهمة لتنظيم المجتمع الديني، لكنها ليست غاية في ذاتها.

2. المعجزات ونقد الأسفار المقدسة: من الخوارق إلى التحليل العقلاني (الفصول 213-297)

بعد مناقشة النبوة، ينتقل سبينوزا إلى تفكيك مفهوم المعجزات، حيث يوضح في الفصل السادس أن المعجزات لا تتوافق مع قوانين الطبيعة، وبالتالي لا يمكن اعتبارها دليلاً على صحة الدين. وبدلًا من ذلك، يرى أن ما يُسمى بالمعجزات هو في الواقع ظواهر طبيعية لم يكن البشر في تلك العصور قادرين على تفسيرها.

في الفصل السابع، يعرض سبينوزا طريقة تفسير الكتاب المقدس باستخدام العقل، بعيدًا عن التأويلات الخرافية. ثم، في الفصلين الثامن والتاسع، يتناول تحليل الأسفار الخمسة، موضحًا التناقضات والمشكلات التي تحتوي عليها، مما يضعف مصداقيتها. ويستمر في الفصل العاشر في نقد باقي أسفار العهد القديم، مشيرًا إلى افتقار بعضها إلى الدقة التاريخية والمعرفية، ما يعزز الحاجة إلى إعادة قراءتها نقديًا.

3.العقل والإيمان: من الإيمان البسيط إلى العقلانية في اللاهوت (الفصول 317-355)

في هذه الفصول، يركز سبينوزا على العلاقة بين العقل والإيمان، حيث يتساءل في الفصل الحادي عشر عما إذا كانت رسائل الحواريين تهدف إلى تعليم الناس بشكل عقلاني أم أنها مجرد تعبيرات شخصية. وفي الفصل الثاني عشر، يناقش "الميثاق الحقيقي" للشريعة الإلهية، مشيرًا إلى أن الشريعة يجب أن تكون عقلانية وأخلاقية، بعيدًا عن المفاهيم الغيبية.

ثم، في الفصل الثالث عشر، يؤكد سبينوزا أن الكتاب المقدس لا يحتوي على تعاليم معقدة أو غامضة، بل هو مليء بتعاليم بسيطة يمكن للجميع فهمها. ويستكمل هذا الطرح في الفصل الرابع عشر بمناقشة مفهوم الإيمان، مشددًا على أنه يجب أن يكون الإيمان مبنيًا على الفهم العقلي، لا على التصديق الأعمى. وأخيرًا، في الفصل الخامس عشر، يوضح أن اللاهوت يجب أن يظل مستقلًا عن العقل البشري، مما يعني ضرورة الفصل بين الدين والفلسفة.

4. الدولة والحرية: من الحقوق الفردية إلى حرية الفكر في الدولة المثالية (الفصول 334-376)

يختتم سبينوزا رسالته بتحليل العلاقة بين الدولة وحقوق الأفراد. ففي الفصل السادس عشر، يناقش مقومات الدولة المثالية، مؤكدًا أنها يجب أن تقوم على العدالة واحترام الحقوق الفردية. ثم، في الفصل السابع عشر، يتناول أسباب انهيار دولة العبرانيين، موضحًا كيف أدى الفساد السياسي والديني إلى زوالها.

ويتابع في الفصل الثامن عشر بتحليل طبيعة السلطة السياسية والدينية في دولة العبرانيين، قبل أن يناقش في الفصل التاسع عشر العلاقة بين العبادة والطاعة لله،

معتبـرًا أن الطاعــة تعـزز اسـتقرار الدولـة. وأخيـرًا، فـي الفصـل العشـرين، يؤكـد سـبينوزا علــى أن الدولــة الحــرة يجــب أن تكفــل حريــة الفكــر والتعبيــر، معتبــرًا ذلــك أساسًــا لإستقرارها.

المبحث الثاني

القراءة الفلسفية للكتاب

في هذا الجزء من القراءة الفلسفية لكتاب "رسالة في اللاهوت والسياسة"، سنتتبع تطوّر أفكار سبينوزا كما عرضها في عدد من الفصول التي تناول فيها قضايا مركزية تتعلّق بالدين والعقل والدولة، محافظين على العناوين الأصلية لهذه الفصول كما وردت في النص. ومن خلال هذه المقاطع، سنقف على الكيفية التي قدّم بها سبينوزا نقدًا جذريًا للمفاهيم الدينية التقليدية، بدءًا من الاتي:

1. من النبوة إلى الشعائر الدينية:

أ/ النبوة:

يبدأ سبينوزا بتحليل طبيعة النبوة، موضحًا أنها ليست معرفة عقلية محضة، بل "المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر" والتي تعتمد على الخيال أكثر من الفكر الخالص. يقول في هذا الصدد:" النبوة أوالوحي هي المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شيء ما. والنبي هو مفسر ما يوحي الله به لأمثاله من الناس الذين لا يقدرون على الحصول على معرفة يقينية به، ولا يملكون إلا إدراكه بالإيمان وحده... ويستعمل في الكتاب بمعنى مفسر الله كما هو واضح في الإصحاح ٧ الآية 1 من سفر الخروج. يقول الله لموسى: (أنظر، قد جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك)"[1] ؛ يعتبر أن النبوة ليست معرفة خاصة أو فوق طبيعية، بل تتطابق مع المعرفة الفطرية التي يمتلكها الإنسان بالعقل وحده. فهو يرى أن الإنسان يمكنه إدراك الحقيقة الإلهية عبر "النور الفطري"؛أي من خلال العقل دون الحاجة إلى وحي خارجي. وهذا ينسجم مع فكرته العامة بأن الله وقوانينه لا تتعارض مع الطبيعة بل تتجلى فيها

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره. ص119

تجلى هذا في قوله: " النبوة تتطابق تماماً مع المعرفة الفطرية لأن ما تعرفه بالنور الفطري يعتمد على معرفة الله وحدها وعلى أوامره الأزلية "[1].

كما يشير إلى أن العامة يميلون إلى الاهتمام بالقصص الخارقة والخرافات أكثر من اهتمامهم بالفهم الحقيقي للأوامر الإلهية. فبدل أن يبحثوا عن الحقيقة من خلال العقل، ينجذبون إلى المعجزات والروايات العجائبية التي قد تكون رمزية أو خيالية، مما يؤدي إلى فهم سطحي للدين حيث: " أنها لا تمثل أية أهمية للعامي الذي يولع بالنوادر والعجائب"[2]

من خلال هذا، يتضح أن النبوة ليست فهمًا عقليًا مجردًا، بل هي تمثل تصورًا ذهنيًا يعتمد على الإيمان والخيال. يدعم سبينوزا ذلك بمثال النبي صموئيل الذي كان يسمع صوت الله كما لو كان صوتًا بشريًا مألوفًا لديه:

استوجب المقام الفصل الضروري بين نبوة موسى وسائر النبوات، لما تنفرد بهم بخصوصية في التجلي والوساطة الإلهية، " فإننا مضطرون إلى أن نؤكد أن الصوت الذي سمعه صموئيل كان من صنع الخيال، فضلا عن أن الصوت كانت له نبرة صوت عالي (٨) الذي كان صموئيل يسمعه عادة، ومن ثم كان يسهل عليه تخيله، ولما ناداه الله ثلاث مرات ظن أنه سمع عالي، على أية حال كان الصوت الذي سمعه أبيملك (1) من صنع الخيال لأننا نقرأ (التكوين ٢٠:٦) فقال الله له في الحلم.. الخ فهو اذن لم يكن يقظاً بل نائماً (أي في حالة يميل فيها الخيال بطبيعته إلى خلق أشياء لا وجود لها) عندما استطاع أن يتخيل إرادة الله"[3]

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره. . ص120
[2] مصدر نفسه، ص120
[3] المصدر نفسه ص. 123

بل إن بعض اليهود يرون " أن الله لم ينطق بألفاظ الوصايا العشر حرفياً، ويعتقدون أن الإسرائيليين سمعوا مجرد ضوضاء عالية لا تتميز فيها الكلمات، وخلال هذه الضوضاء أدركوا بالفكر الخالص الوصايا العشر"[1]. وفي هذه الفكرة التي يطرحها سبينوزا تشير إلى تأويل عقلي لمسألة الوحي والوصايا العشر. فهو ينقل رأيًا لبعض اليهود بأن الله لم ينطق بألفاظ الوصايا العشر حرفيًا، بل إن بني إسرائيل لم يسمعوا كلمات واضحة، وإنما سمعوا مجرد "ضوضاء عالية" لم تكن مفهومة بذاتها. لكنهم، من خلال التفكير العقلي الخالص، أدركوا مضمون الوصايا.

تعزز هذه الفكرة موقف سبينوزا بأن الوحي ليس عملية نقل مباشر لكلمات إلهية، بل هو عملية عقلية داخلية تحدث داخل النفس البشرية. فالوحي وفقًا لهذا الفهم، ليس صوتًا حرفيًا يُسمع، وإنما إدراك عقلي للحقائق الإلهية. هذا يتماشى مع رؤيته العامة بأن الله لا يعمل خارج قوانين الطبيعة، وأن المعرفة الحقيقية ليست قائمة على السمع الحسي، بل على الفهم العقلي العميق.

فعبارة " روح الله، أو روح (يهوه) لا تعني، في بعض النصوص إلا ريحاً قوية جافة عاتية كما نجد في أشعيا (٤٠: ٨) (لأن روح الرب هب فيه ، أي ريح مدمرة ، وكذلك في سفر التكوين (١ : ٢) (وريح الله) (أي ريح قوية للغاية) (يرف على وجه المياه ، وكذلك تعني كلمة (روح) شجاعة فائقة، فالكتاب المقدس يصف شجاعة جدعون (٣٠) ، وشجاعة شمشون (٣١) بروح الله أي شجاعة تفوق كل إمتحان . كذلك توصف كل صفة أو قوة تفوق المعتاد بأنها روح الله أو صفة الله."[2] سبينوزا يوضح أن "روح الله" لا تعني بالضرورة كيانًا روحانيًا إلهيًا، بل يمكن أن تشير إلى ظواهر طبيعية مثل الرياح القوية، كما في بعض نصوص العهد القديم،

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص123

[2] مصدر نفسه، ص133و134

كما يمكن أن تعني شجاعة غير عادية أو قوة استثنائية، مثل شجاعة جدعون وشمشون، مما يعني أن "روح الله" في بعض الأحيان مجرد تعبير مجازي عن صفات بشرية متميزة.

يشير إلى أن الوحي في الكتاب المقدس غالبًا ما يحدث من خلال صور حسية وليس عن طريق إتصال مباشر مع الله، مثل رؤية داوود لملاك يحمل سيفًا كرمز للغضب الإلهي، أو رؤية بلعام لملاك مماثل، وهذه الرؤى وفقًا لسبينوزا، ليست بالضرورة حقائق موضوعية، بل تصورات عقلية تُبنى داخل وعي النبي تبين هذا في قوله:" يشير سفر أخبار الأيام الأول (الإصحاح (٢١) إلى حدوث الوحي عن طريق الصور الحسية حيث يكشف الله عن غضبه على داوود فيراه ملاكاً قابضاً سيفاً بيده (١٢)، وقد حدث ذلك أيضا لبلعام (١٣)."[1]

وفي في حالات مثل وحي يوسف بالنصر، لم يكن هناك حدث خارجي حقيقي، بل كانت مجرد صور نشأت في خياله وتصوراته الداخلية كذلك، عندما "أُوحي" ليوشع بالنصر، لم يكن ذلك إعلانًا إلهيًا مباشرًا، بل رؤى داخلية صاغها خياله الذاتي بناءً على إيمانه وتوقعاته، " فإن الله أوحى ليوسف نصره المؤزر مستقبلاً، لا عن طريق صور حقيقية، بل بصور مخيلة النبي نفسه (١٧) وأوحى ليوشع بالكلام وبالصور أنه سيحارب مع الإسرائيليين، وأراه ملاكاً شاهراً سيفاً على رأس الجيش، ونطق الملاك ببعض الكلمات ليؤكد ليوشع هذا الخبر (١٨) "[2]

يحاول سبينوزا تقديم تفسير طبيعي للنبوة، بعيدًا عن الفهم التقليدي للوحي، معتبرًا أن كل شيء يحدث وفق قوانين الطبيعة التي هي ذاتها قوانين الله.

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص125

[2] المصدر نفسه. ص127

ب/ الأنبياء:

يتناول الفصل الأول مفهوم النبوة بوصفها معرفة يقينية يوحي بها الله إلى البشر، لكنه في الوقت ذاته يشير إلى أن هذه المعرفة ترتبط بالخيال أكثر من ارتباطها بالعقل الخالص. سبينوزا يرى أن النبوة ليست إدراكًا عقليًا صافياً للحقيقة، بل تعتمد على المخيلة التي تصوغ صورًا حسية توحي للنبي بمعاني معينة. هذا الطرح يمهد لما جاء في الفصل الثاني، حيث يركز على الأنبياء أنفسهم، موضحًا أن ما يميزهم ليس تفوقهم العقلي أو حكمتهم، بل قوة خيالهم التي تجعلهم قادرين على تلقي الوحي بصور حسية واضحة. من هنا يمكن القول إن الفصل الثاني هو إمتداد للفصل الأول، يربط سبينوزا في هذا الطرح بين طبيعة النبوة (كما ناقشها في الفصل الأول) وصفات الأنبياء (التي يتناولها في الفصل الثاني). فهو يرى أن النبوة ليست نتيجة تفوق عقلي أو حكمة فلسفية، بل هي حالة تعتمد على قوة الخيال. فالنبي، وفقًا لهذا التصور، لا يمتلك فكرًا أكمل أو معرفة عقلية دقيقة، بل يتميز بقدرة خيالية فائقة تجعله يتلقى الوحي على هيئة صور حسية وانفعالات نفسية، " انتهينا من الفصل السابق – كما أشرنا من قبل – إلى تمتع الأنبياء بقدرة أعظم على الخيال الحي، لا بفكر أكمل (١) وفي روايات الكتاب المقدس البراهين الكافية على ذلك. فمن المسلم به مثلا أن سليمان لم تكن لديه هبة النبوة ، مع أنه فاق سائر البشر في حكمته، وكذلك لم يكن الرجال ذوو العقل الراجح، من أمثال هيمان ودرداع وكلكول (٢) أنبياء، على حين أن رجالا جهلاء غرباء عن العلم وكذلك بعض النساء الساذجات مثل هاجر (٣) خادمة ابراهيم كانت لديهم هبة النبوة ، وهذا ما يتفق مع التجربة والعقل، فكلما زاد الخيال قل الإستعداد لمعرفة الأشياء بالذهن الخالص، وعلى العكس من ذلك نجد أن من يتفوقون في الذهن"[1]،

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص141

يُستدل على ذلك من أمثلة قدمها سبينوزا، حيث يشير إلى أن سليمان، رغم حكمته الفائقة، لم يكن نبيًا، وكذلك هيمان ودرداع وكلكول، وهم رجال اشتهروا برجاحة العقل. في المقابل، نال النبوة أشخاص جهلاء لا يملكون علمًا متقدمًا، بل وحتى بعض النساء الساذجات مثل هاجر، خادمة إبراهيم. ومن هنا، يستنتج سبينوزا أن النبوة تتطلب إستعدادًا نفسيًا وخياليًا أكثر مما تتطلب قدرات عقلية مجردة، مما يعزز فكرته القائلة بأن الوحي ليس إدراكًا عقليًا صافياً، بل عملية إدراكية تتوسطها المخيلة والإنفعالات الحسية.

هذا التحليل يدعم الطرح العام لسبينوزا بأن النبوة، كما جاءت في النصوص الدينية، ليست معرفة فلسفية قائمة على البرهان العقلي، بل تجربة ذاتية تعتمد على تمثلات حسية وخيالية، تختلف باختلاف شخصية النبي ومدى انفعاله بالمؤثرات النفسية والدينية.

" إن مجرد الخيال لا يتضمن بطبيعته اليقين، على نحو ما تتضمنه كل فكرة واضحة ومتميزة، بل إن من الضروري، للحصول على اليقين، أن نضيف الى الخيال شيئا ما هو الإستدلال ويترتب على ذلك أن النبوة لا تتضمن بذاتها اليقين، ما دامت تعتمد، كما بينا على الخيال وحده. وإذن فالأنبياء لم يكونوا على يقين من الوحي الذي وهبهم الله اياه عن طريق الوحي نفسه بل اعتمادا على آية (أي علامة (ما. ويتضح ذلك عند ابراهيم (التكوين، ١٥: ٨) (٤) عندما طلب آية بعد سماعه وعد الله . فقد كان مؤمنا بالله ولم يطلب آية تثبت اعتقاده، بل ليعلم أن الله أعطاه هذا الوعد، كما يتضح ذلك بصورة أوضح فيها يقوله جدعون (٥) الله: اجعل لي آية (حتى أعلم (على أنك أنت الذي كلمني (القضاة ، ٦ : ١٧) "[1] ، في هذا المقطع، يوضح سبينوزا أن الخيال وحده لا يكفي للوصول إلى اليقين، على عكس

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 142

الأفكار الواضحة والمتميزة التي تنبع من العقل والإستدلال المنطقي. فالنبوة، بما أنها تعتمد على الخيال، لا توفر في ذاتها معرفة يقينية، بل تظل بحاجة إلى دليل خارجي يدعمها. لهذا السبب، لم يكن الأنبياء على يقين تام من الوحي بمجرد تلقيه، بل احتاجوا إلى "آية" أو علامة تثبت لهم صحة ما تلقوه.

يستشهد سبينوزا بمثال النبي إبراهيم، الذي طلب آية من الله بعد أن سمع وعده، ليس لأنه كان يشك في وجود الله، بل لأنه أراد التأكد من أن هذا الوعد صادر بالفعل عن الله. كما يورد مثال جدعون، الذي طلب هو الآخر علامة إلهية للتأكد من أن الله هو الذي كلمه.

من خلال هذا الطرح، يسعى سبينوزا إلى التأكيد على أن النبوة ليست وسيلة يقينية للمعرفة، بل هي تجربة ذاتية تحتاج إلى دعم خارجي لكي يثق النبي بصحتها. وهذا يتماشى مع رؤيته العامة التي تفصل بين المعرفة العقلية القائمة على البرهان، والمعرفة النبوية التي تعتمد على المخيلة والإنفعالات مما يجعلها أقل يقينية بطبيعتها، يُبرز سبينوزا الأسس الثلاثة التي يقوم عليها يقين الأنبياء بوحيهم، وهو يقين لا ينبع من المعرفة العقلية المجردة، بل من التجربة الشخصية والإنفعالات الداخلية " إن اليقين النبوي كله يقوم على هذه الأسس الثلاثة:

1- تخيل الأنبياء للأشياء الموحى بها كأنها ماثلة أمامهم كما يحدث لنا عادة في حالة اليقظة عندما نتأثر بالأشياء."[1]

يرى سبينوزا أن الأنبياء يتلقون الوحي من خلال المخيلة، فيتصورون الأشياء كأنها حقيقية وماثلة أمامهم، تمامًا كما قد نتصور أشياء معينة بوضوح عندما نكون متأثرين بشدة في حالة يقظة أو إنفعال؛ هذا يعني أن الوحي

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 145.

النبوي ليس معرفة عقلية مجردة، بل هو تجربة ذهنية تعتمد على الصور الحسية والإنفعالات.

2- الآية.

"بما أن الوحي يعتمد على المخيلة، فإنه لا يوفر يقينًا ذاتيًا للنبي، لذا يحتاج النبي إلى "آية" أو دليل خارجي يؤكد له أن هذا الوحي صادر فعلًا عن الله. هذه العلامة قد تكون معجزة، أو حدثًا خارقًا، أو حتى مجرد إحساس داخلي يعزز ثقة النبي بوحيه.

3- ميل قلوبهم إلى العدل والخير، وهذا أهم شيء..."[1]. يضع سبينوزا هذا العنصر كأساس ضروري لليقين النبوي، حيث يرى أن الأنبياء لم يكونوا فلاسفة أوأصحاب عقل تحليلي، بل كانوا أشخاصًا ذوي قلوب مخلصة تميل بطبيعتها إلى الخير والعدل. هذا الميل الأخلاقي يجعلهم يصدقون أن وحيهم حقيقي لأنه ينسجم مع نزعتهم الداخلية للحق والصواب.

من خلال هذه النقاط يؤكد سبينوزا أن النبوة ليست معرفة قائمة على البرهان العقلي، بل هي تجربة تخيلية تحتاج إلى دعم خارجي، وتُعززها النزعة الأخلاقية للنبي.

ج/ رسالة العبرانيين وهل كانت هبة النبوة وفقا عليهم ؟:

يشير سبينوزا إلى أن تميز العبرانيين عن بقية الشعوب لم يكن بسبب تفوقهم الفكري أو الروحي، بل كان في تحقيقهم الأمن والإستقرار، وربما في قدرتهم على تجاوز الأزمات والمخاطر الكبرى؛ أي أن نجاحهم كان مرتبطًا بظروف حياتهم السياسية والإجتماعية، وليس بصفات جوهرية خاصة بهم،" إذ كان العبرانيون قد تميزوا

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 145.

بشيء ما عن الأمم الأخرى، فإنهم قد تميزوا بازدهار أحوالهم فيما يتعلق بالأمن في الحياة، وربما حصلوا عليه من سعادة في التغلب على المخاطر الكبرى."[1]

وقد تم لهم كل " هذا بعون الله الخارجي فحسب. وفيما عدا ذلك كانوا على قدم المساواة مع باقي الأمم، فالله يرعى الجميع على السواء أما فيما يتعلق بالحكمة، فمن الثابت (وقد بينا ذلك في الفصل السابق) أنه كانت لديهم معتقدات فجة إلى حد بعيد عن الله والطبيعة."[2]

هنا يوضح سبينوزا أن نجاح العبرانيين لم يكن نتيجة تفوق ذاتي لديهم، بل كان بسبب عون إلهي خارجي مؤقت، وليس لأنهم شعب مختار أو مفضل. كما يؤكد أن الله لا يميز شعبًا عن آخر، بل يرعى الجميع بنفس الدرجة. أما من ناحية الحكمة والفكر، فإن العبرانيين لم يكونوا أكثر تطورًا من غيرهم، بل كانت تصوراتهم عن الله والطبيعة بدائية وغير دقيقة مقارنة بالشعوب الأخرى.

أن هبة النبوة لم " تكن وقفا على اليهود وحدهم، بل مشتركة بين جميع الأمم. الإَ أن (الفريسيين****) (٤١) ينتهون الى عكس ما انتهينا اليه، ويؤكدون أن هذه الهبة الإلهية كانت وقفا على أمتهم"[3]

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص170

[2] المصدر نفسه. ص 170

****الفريسيون pharisiens يذكرهم يوسف المؤرخ اليهودي، انظر الهامش ٧٩ من الفصل الثاني) لأول مرة في زمن يوناثان Jonathan. كونوا حزباً أيام يحيى حرقان Jean Hyrkan) (الكاهن الأعظم وأمير اليهود من ١٣٤ إلى (١٠٤) المناهضة حركاته التجديدية، ولما كانوا من أنصار الحديين Hassidin (الاتقياء) كونوا معارضة دينية وانفصلوا عن الآخرين. وكان معظمهم من العلمانيين Laiques من بين الكتبة Scribes وترجع سلطتهم إلى معرفتهم بالكتاب المقدس، ولذلك سماهم الانجيل فقهاء الشريعة Docteurs de la Li. وكانوا يصرون على تطبيق أحكام الشريعة مثل أحكام السبت، وكانوا يعتقدون بخلود النفس وبعث الأجساد، وكان لديهم تراث شفاهي ويعتبرون آراء الفقهاء مصدراً من مصادر التشريع. وينقدهم الانجيل والفضيلهم الأحكام الخارجية على التقوى الباطنية، كما يصفهم الانجيل بالغرور واحتقار المتواضعين رفضوا الاعتراف بالمسيح وبرسالته الروحية ولكن بعضهم ناصر المسيحية مثل جماليل Gamaliel بدفاعه عن الحواريين أمام محكمة اليهود وكذلك شاؤول الذي أصبح فيها بعد القديس بولس

[3] المصدر نفسه. ص177

في هذا الجزء، يفند سبينوزا الإعتقاد اليهودي بأن النبوة كانت حكرًا على بني إسرائيل، موضحًا أنها ظاهرة إنسانية عامة وليست مقتصرة على شعب معين. فالنبوة ليست دليلًا على الإصطفاء الإلهي، بل هي نتاج طبيعي لقوة الخيال لدى الأفراد، وهو أمر يمكن أن يوجد في أي أمة أومجتمع. لكنه يلاحظ أن الفريسيين، وهم إحدى الفرق الدينية اليهودية، حاولوا احتكار مفهوم النبوة لجعلها حكرًا على اليهود، رغم أن هذا يتعارض مع الواقع والتاريخ.

يوضح سبينوزا أن خصوصية اليهود لم تكن في تلقيهم للوحي الإلهي وحدهم، بل في أنهم كانوا الأمة الوحيدة التي حصلت على الشريعة مكتوبة؛ أي في شكل نصوص وقوانين مدونة. بينما باقي الأمم لم تكن لديهم شريعة مكتوبة، لكنهم حصلوا على الوحي والإلهام الإلهي بشكل روحي فقط، أي عن طريق الإحساس الداخلي أو الإدراك الفطري.

بمعنى آخر؛ اليهود لم يكونوا الشعب الوحيد الذي تواصل معه الله، بل كانوا فقط الأمة التي تلقت تعاليمها في شكل قوانين مدونة، بينما بقية الشعوب كانت تعتمد على المبادئ الدينية والأخلاقية بطريقة غير رسمية أوغير مكتوبة، " لقد أوتمن اليهود وحدهم على كلمات الله، يجب أن نفهم من ذلك أن اليهود وحدهم هم الذين أودعت لديهم الشريعة مكتوبة، على حين حصلت سائر الأمم على الوحي والأمانة في الروح فقط."[1]

د/ القانون الالهي:

يتحدث سبينوزا عن مفهوم القانون بصفة عامة، موضحًا أن القانون هو قاعدة سلوك ثابتة يخضع لها الأفراد، سواء كانوا مجموعة من الكائنات المختلفة أوأفرادًا

[1]سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 179.

من نفس النوع؛ أي أن القانون ليس محصورًا فقط في القوانين البشرية أو الدينية، بل يشمل أيضًا القوانين الطبيعية التي تحكم جميع الكائنات والموجودات، سواء فيزيائية أو اجتماعية أو دينية، " يطلق لفظ القانون مأخوذاً بمعناه المطلق، على كل حالة يخضع فيها الأفراد منظوراً إليهم كل على حدة؛ سواء أكان الأمر متعلقاً بمجموع الموجودات أو ببعض الموجودات المنتمية إلى نفس النوع – لقاعدة سلوك واحدة محددة."[1]

ربط سبينوزا القانون الإلهي بحب الله، حيث يرى أن السعادة القصوى للإنسان تكمن في معرفة الله وحبه. لكنه يؤكد أن الحب الحقيقي لله لا يجب أن يكون بدافع الخوف من العقاب أوالطمع في الثواب، بل يجب أن يكون حبًا خالصًا نابعًا من الإدراك العقلي لطبيعة الله ومعرفته كأسمى خير. ومن يتصرف وفقًا لهذا الفهم هو الذي يطيع القانون الإلهي بشكل حقيقي، لأن هدفه النهائي هو الخير الأقصى المرتبط بالمعرفة والمحبة، وليس مجرد الامتثال القائم على الخوف أوالرغبة في المكافأة، ذلك في رأيه:" لما كان حب الله هو سعادة الإنسان القصوى ونعيمه والغاية الأخيرة لجميع الأفعال الإنسانية وهدفها (٩) فإن ذلك الذي يجعل همه حب الله لا خوفاً من عذابه، ولا طمعاً في شيء آخر كاللذات أو الشهوة بل لمجرد كونه يعرف الله ، أي لأنه يعلم أن الخير الأقصى في معرفة الله وحبه – ذلك وحده هو الذي يتبع القانون الإلهي "[2]

كما عبر سبينوزا عن تصوره الفلسفي لله كجوهر أزلي يحتوي على كل الحقائق الأبدية. فهو يوضح أن كل الحقائق، بما فيها المفاهيم الرياضية مثل طبيعة المثلث، موجودة في طبيعة الله منذ الأزل؛ أي أن فكرة المثلث ليست شيئًا مستحدثًا،

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 183
[2] المصدر نفسه. ص187

بل هي جزء من الفكر الإلهي الأزلي، مما يعني أن الله "يتصور" طبيعة المثلث كحقيقة ثابتة. هذا يتماشى مع رؤية سبينوزا بأن العقل الإلهي ليس منفصلًا عن الطبيعة، بل هو متجسد في كل الحقائق الكونية، في قوله: " فمثلاً إذا كنا نضع في اعتبارنا فقط أن طبيعة المثلث متضمنة منذ الأزل في طبيعة الله بوصفها حقيقة أبدية، فحينئذ نقول: إن الله فكرة عن المثلث أو أنه يتصور بذهنه طبيعة المثلث."[1]

يؤكد سبينوزا أن الأنبياء الذين نقلوا الشرائع باسم الله لم يكونوا على إدراك عقلي تام لأوامر الله، بل استقبلوها بطريقة تتناسب مع مستوى إدراكهم وحدود خيالهم. فهو يقارنهم بمن سبقهم، مثل آدم والإسرائيليين، مشيرًا إلى أن إدراكهم كان قائمًا على الوحي والخيال وليس على فهم عقلي واضح كما هو الحال مع الحقائق الأبدية، مثل القوانين الرياضية أوالفلسفية ، بمعنى آخر، لم يكن وحي الأنبياء معرفة عقلية خالصة، بل كان تصورًا مشحونًا بالعاطفة والخيال، مما أدى إلى اختلاف التشريعات الدينية باختلاف الأنبياء والبيئات التي عاشوا فيها،" ما نقوله الآن عن آدم والإسرائيليين ينطبق أيضاً على جميع الأنبياء الذين شرعوا قوانين باسم الله، فهم لم يدركوا أوامر الله ادراكاً كافياً كما ندرك الحقائق الأبدية."[2]

هـ/ السبب في وضع الشعائر والايمان بالقصص لاي سبب ولأي نوع من الناس كان ضروريا:

يؤكد سبينوزا أن القانون الإلهي الحقيقي، الذي يحقق للناس السعادة الحقيقية ويعلمهم كيف يعيشون حياة فاضلة، ليس خاصًا بأمة أو جماعة معينة، بل هو مشترك بين جميع البشر. وهو يرى أن هذا القانون ليس مستمدًا من وحي خارجي أونصوص دينية، بل يمكن استخلاصه من طبيعة الإنسان نفسها، مما يعني أنه

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص189
[2] المصدر نفسه. ص190

فطري داخل النفس البشرية وكأنه "مكتوب" فيها منذ الخلق؛ أي أن الأخلاق الحقيقية مستمدة من طبيعة الإنسان وعقله وليس من تشريعات دينية معينة، تبين هذا في الفصل السابق: " أن القانون الإلهي الذي يعطي الناس السعادة الحقة ويعلمهم الحياة الحقيقية مشترك بين الناس جميعاً، بل اننا استنبطناه من الطبيعة الانسانية، بحيث يجب علينا أن نعتبره فطرياً في النفس الإنسانية، وكأنه مسطور فيها."[1]

كما يشير إلى فكرة التوحيد بين القانون الإلهي المطلق والقانون الأخلاقي الشامل الذي يجب أن يحكم حياة الإنسان، وليس بين القانون الإلهي والشعائر الدينية؛ أي أن الهدف الأساسي للدين ليس التمسك بالطقوس والشعائر، بل الإلتزام بقواعد أخلاقية عامة تصلح لجميع البشر. ويرى أن سفر أشعيا في التوراة يعكس هذه الفكرة، حيث يؤكد أن الإيمان الحقيقي ليس مجرد ممارسة الطقوس، بل هو التمسك بمبادئ العدل والخير،" إن أوضح دعوة في سفر أشعيا هي دعوته للتوحيد بين القانون الإلهي بالمعنى المطلق لهذه الكلمة والقانون الشامل الذي يكون قاعدة صحيحة للحياة، لا بين القانون الإلهي والشعائر."[2]

يشرح سبينوزا لماذا يكون الإيمان بقصص الكتب المقدسة ضروريًا لعامة الناس. فهو يرى أن الناس العاديين، الذين لا يستطيعون إدراك الأمور بوضوح وبطريقة عقلية مجردة، يحتاجون إلى هذه القصص الدينية كي يحصلوا على فهم للحياة والوجود بطريقة تتناسب مع قدراتهم الفكرية. في المقابل، من ينكر هذه القصص الدينية لا بسبب التفكير العقلاني، بل لأنه لا يؤمن بوجود الله أو بعنايته الإلهية، يمكن اعتباره كافرًا وفقًا للمنظور الديني التقليدي.

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص197

[2] المصدر نفسه. ص198

بالتالي، القصص الدينية ليست بالضرورة حقائق عقلية، لكنها تلعب دورًا وظيفيًا في تشكيل وعي العامة وحثهم على الفضيلة، فيما ذكره أنّ: " الناس الذين يكون الإيمان بقصص الكتب المقدسة ضرورياً لهم وما أسباب ذلك. إذ يتضح تماما مما بينته الآن أن معرفة هذه القصص والإيمان بحقيقتها ضروري إلى أقصى حد للعامة الذين لا تقوى أذهانهم على إدراك الأشياء بوضوح وتميز. ومن ناحية أخرى فإن من ينكرها، نظراً إلى كونه لا يعتقد بوجود إله أو بعناية إلهية، يمكن أن يعد كافراً."[1]

2. المعجزات ونقد الأسفار المقدسة: من الخوارق إلى التحليل العقلاني:

أ/ المعجزات:

سبينوزا يقدم في هذا الفصل مقاربة عقلانية لفكرة المعجزات، محاولًا تفكيك التصورات الدينية التقليدية التي ترى فيها دليلًا على وجود الله أوعنايته الخاصة. فهو ينطلق من مبدأ أساسي يتمثل في أن الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة لا تتغير، مما يعني أن أي ظاهرة توصف بأنها "معجزة " لا يمكن أن تكون خرقًا لهذا النظام، بل تعكس ببساطة جهل البشر بالأسباب الحقيقية التي تقف خلفها. يرى سبينوزا أنه: " لا يحدث شيء يناقض الطبيعة، فالطبيعة تحتفظ بنظام أزلي لا يتغير."[2] هذه العبارة تلخص موقفه الجوهري، حيث ينفي تمامًا إمكانية وجود أحداث تتجاوز قوانين الطبيعة، مما يجعل الاعتقاد بالمعجزات، وفق تعريفها التقليدي، نوعًا من الوهم أو سوء الفهم.

المعجزة في نظر سبينوزا ليست سوى تعبير عن محدودية المعرفة البشرية. فحين يواجه الناس ظاهرة لا يستطيعون تفسيرها، فإنهم يلجؤون إلى مفهوم المعجزة كوسيلة لتغطية هذا الجهل. اي: "يترتب على هذه المبادىء بوضوح تام أن لفظ المعجزة لا يمكن أن يفهم الاَ

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص208
[2] المصدر نفسه. ص 214

صلته بآراء الناس ويعني مجرد عمل لا نستطيع أن نبين علته قياساً على شيء آخر معروف هو على الأقل عمل لا يمكن لراوي المعجزة أن يفسره وأستطيع أن أقول حقيقة: إن المعجز حادثة لا نستطيع أن نبين علتها اعتماداً على مبادىء الأشياء الطبيعية كما ندركها بالنور الفطري، ومع ذلك لما كانت المعجزات قد أجريت على مستوى فهم العامة الذين يجهلون مبادىء الأشياء الطبيعية جهلاً تاماً،"[1] هنا لا يقتصر نقد سبينوزا على مجرد رفض المعجزات، بل يمتد إلى نقد العقلية التي تجعل الإنسان يميل إلى تبني التفسيرات الغيبية بدلًا من البحث عن العلل الطبيعية للأحداث.

إنكار المعجزات لا يعني عند سبينوزا إنكار وجود الله، بل على العكس، فهو يرى أن الله يتجلى في القوانين الثابتة للطبيعة وليس في خرقها. فالقانون الطبيعي، بما يتمتع به من انتظام وثبات، هو أعظم تعبير عن الإله، وأي تصور لله باعتباره كيانًا يتدخل ليغير هذا النظام هو تصور يناقض كماله. ذلك في قوله: " إذا حدث شيء في الطبيعة يتعارض مع قوانينها العامة، فإنه سيكون أيضا متعارضاً مع مشيئة الله وعقله وطبيعته؛ أي أنه لا يمكن أن يحدث إطلاقا "[2]

وهذا يعني أن فكرة الإله الذي يتدخل في العالم بطريقة استثنائية، كما تطرحها الأديان التقليدية، تتعارض مع مفهوم سبينوزا عن الإله ككيان واحد مع الطبيعة، لا يتدخل فيها من خارجها، بل هو القانون الذي يحكمها.

سبينوزا يذهب أبعد من ذلك عندما يحلل كيف استُخدمت فكرة المعجزات عبر التاريخ لتبرير معتقدات دينية أو سياسية معينة. فهو يرى أن الشعوب القديمة كانت تنسب أي ظاهرة غير مألوفة إلى تدخل إلهي، ليس فقط بسبب جهلها، بل أيضًا لتأكيد شعورها بالتميز أولإضفاء شرعية على أوضاعها السياسية والدينية. تبين هذا في العبارة: " فقد قص هؤلاء اليهود

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص216

[2] المصدر نفسه. ص215 (بالتصرف)

معجزاتهم، وحاولوا أن يبينوا بذلك أيضاً أن الطبيعة كلها مسيرة لمصلحتهم وحدهم بأمر من الإله الذي يعبدونه."[1] هنا، يُبرز سبينوزا البعد النفعي لفكرة المعجزة، حيث لم تكن مجرد اعتقاد بريء، بل كانت أداة أيديولوجية تُستخدم لإرساء مفاهيم التفوق الديني أوالقومي.

إحدى النقاط الأساسية التي يثيرها سبينوزا هي أن النصوص الدينية لا يجب أن تُفهم حرفيًا عندما تتحدث عن المعجزات، بل يجب تأويلها وفقًا لقوانين الطبيعة. فهو يرى أن الأنبياء لم يكونوا علماء، بل كانوا يخاطبون الناس بأسلوب يتناسب مع مستوى فهمهم، لذلك استخدموا لغة تصويرية ورمزية. أستدل بقوله: " لذلك يتحدث الكتاب عن الله وعن الأشياء بأسلوب غير دقيق، لأنه لا يريد إقناع العقل، بل يريد إثارة الخيال وشحذ قدرته على التصوير."[2] وفقًا لهذا المنظور، فإن كثيرًا مما ورد في الكتب المقدسة بشأن المعجزات يمكن فهمه على أنه تعبير بلاغي يهدف إلى إيصال رسائل أخلاقية أو سياسية، وليس وصفًا دقيقًا لأحداث خارقة.

إذا أخذنا هذا الطرح بعين الاعتبار، يمكن القول إن سبينوزا يقدم تصورًا للواقع يخلو تمامًا من التدخلات الإلهية المباشرة، حيث يصبح فهم الكون ممكنًا فقط من خلال دراسة قوانينه الداخلية، وليس من خلال انتظار تدخلات مفاجئة من قوة غيبية. وهو يؤكد أن الإنسان يجب أن يبتعد عن العقلية التي تفسر الظواهر من منظور الغموض والإرادة الإلهية، بل عليه أن يسعى إلى فهم الطبيعة اعتمادًا على العقل وحده. وعلى ذلك " فإن أولئك الذين يلجؤون إلى إرادة الله إذا ما جهلوا شيئاً – وهي طريقة مزرية للاعتراف بجهلهم – يكشفون عن تفاهة عقولهم وهم راضون."[3] هذه الفكرة تشكل أحد الأسس الجوهرية للعقلانية الحديثة، حيث تصبح كل الظواهر قابلة للتفسير العلمي، وليس هناك مكان لما هو "خارق" أو"ماورائي".

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص214
[2] المصدر نفسه. ص225
[3] المصدر نفسه، 218-219

يمكن القول إن سبينوزا يقدم في هذا الفصل تفكيكًا جذريًا لمفهوم المعجزة، محاولًا إعادة تفسير الظواهر الدينية في ضوء العقل والفلسفة. وهو بذلك لا يهاجم الدين في حد ذاته، بل يسعى إلى تحريره من التصورات الأسطورية، ليصبح منسجمًا مع النظام الطبيعي للعالم. هذا الطرح يجعل سبينوزا من أوائل الفلاسفة الذين أسسوا لرؤية عقلانية نقدية تجاه الموروث الديني، وهي رؤية ستلعب دورًا كبيرًا في تشكيل الفكر الحديث.

ب/ تفسير الكتاب:

يطرح سبينوزا في رسالة في اللاهوت والسياسة رؤية نقدية للتفسير التقليدي للكتاب المقدس، حيث يرى أن هذا التفسير غالبًا ما يكون موجَّهًا لخدمة المصالح الشخصية والسياسية بدلًا من السعي إلى الحقيقة. فهو يشير إلى مفارقة واضحة بين الإيمان والسلوك، حيث يؤمن الناس بأن الكتاب المقدس هو كلام الله، لكنهم لا يلتزمون بتعاليمه، قائلاً: " غير أن سلوك الناس يكشف عن واقع مغاير تمامًا، إذ إن العامة لا يحرصون إطلاقًا على العيش وفقًا لتعاليم الكتاب المقدس."[1]ويرجع ذلك، حسب سبينوزا، إلى هيمنة رجال الدين على التأويلات الدينية، وتكييفهم للنصوص بما يخدم مصالحهم وأغراضهم، إذ يقول:" إننا نرى معظم اللاهوتيين قد انشغلوا بالبحث عن وسيلة لاستخلاص بدعهم الخاصة وأحكامهم التعسفية من الكتب المقدسة، بتأويلها قسرًا."[2]

وهذا التأويل القسري لا ينبع من سعي حقيقي إلى الكشف عن الحقيقة، بقدر ما يهدف إلى تثبيت السلطة الدينية والاجتماعية، حيث يضيف: " والأمر الوحيد الذي يخشونه في عملهم هذا ليس الخوف من أن ينسبوا إلى الروح القدس عقيدة باطلة... بل أنهم يقنعهم الآخرون بخطئهم."[3]

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص233
[2] المصدر نفسه. ص233
[3] المصدر نفسه، ص233

ويرى سبينوزا أن الخرافة تلعب دورًا كبيرًا في تشويه الدين، إذ تقوم على بثّ الوهم والخوف والدعوة إلى احتقار العقل والطبيعة، في حين يُصرّ هو على أن العقل هو الوسيلة الوحيدة لفهم الحقيقة وتحرير الإنسان من الجهل، حيث إذا:" أضيفت إلى هذه الشرور، بحسب سبينوزا، الخرافةُ التي كرّست احتقار العقل والطبيعة، وشجّعت على الإعجاب بكل ما يناقضهما وتعظيمه."[1]

وبناءً على ذلك، يقترح سبينوزا منهجًا عقلانيًا لدراسة الكتاب المقدس، يقوم على التحليل التاريخي واللغوي موضحا: " إنه لا يختلف في شيء عن المنهج الذي اتبعه في تفسير الطبيعة، بل يتفق معه في جميع جوانبه."[2]

كما يؤكد سبينوزا أن دراسة الظروف الإجتماعية والتاريخية التي كُتب فيها النص أمر ضروري لفهمه فهمًا صحيحًا، ويرى أن اللغة العبرية تلعب دورًا محوريًا في هذا السياق، حيث يقول: " ولما كان جميع من قاموا بالتدوين؛ سواء في العهد القديم أوفي العهد الجديد للعبرانيين، فلا شك أن معرفة اللغة العبرية ضرورية قبل كل شيء."[3]

ويخلص سبينوزا إلى أن الإيمان الحقيقي لا يجب أن يستند إلى المعجزات أوالتفسيرات القسرية، بل إلى المبادئ الأخلاقية والعقلية، مؤكدًا:"ولقد برهن من قبل على أن المعجزات لا أستطيع أن تبرهن على قدسية الله."[4]

أما " فيما يتعلق بطبيعة الله وكيفية رؤيته ورعايته لجميع الأشياء فإن الكتاب لا يقول شيئًا عن ذلك صراحة، ولا يعطي عقيدة أزلية تتعلق بهذا الأمر."[5] وهذا يشير إلى أن بعض النصوص لا يمكن تعميمها على جميع العصور، بل يجب تفسيرها وفقًا لزمنها الخاص.

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص234
[2] المصدر نفسه، ص234
[3] المصدر نفسه، ص 236
[4] المصدر نفسه، ص235
[5] المصدر نفسه، ص239

يقدم سبينوزا في نقده لتفسير الكتاب المقدس رؤية عقلانية قائمة على التحليل التاريخي واللغوي، رافضًا التفسيرات اللاهوتية التي تخدم المصالح الشخصية. يؤكد أن النصوص الدينية يجب أن تُدرس كما ندرس الظواهر الطبيعية، دون أحكام مسبقة، وأن الدين الحقيقي يجب أن يكون وسيلة لنشر الخير والفضيلة، لا أداة لفرض السلطة وإشاعة الخرافات.

ج/ البرهنة على ان الاسفار الخمسة ليست صحيحة:

يعتبر سبينوزا أن النصوص الدينية يجب أن تُدرس بطريقة نقدية وموضوعية، تمامًا كما تُدرس النصوص التاريخية. فهو يرفض التسليم الأعمى بصحة الروايات الدينية، معتبرًا أن هذا يؤدي إلى التعصب والهيمنة الدينية غير المبررة. في هذا السياق:" تناولنا في الفصل السابق الأسس والمبادىء التي تقوم عليها معرفة الكتب المقدسة، وبينا أنها ليست إلاَ المعرفة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس ولكن القدماء أهملوا هذه المعرفة بالرغم من ضرورتها، وبالرغم من أنهم دونوها ونقلوها فقد فقدت بعد أن أصابتها عوادي الزمان، وبالتالي ضاع منا كلية جزء كبير من هذه الأسس والمبادىء. ولقد كان بالامكان تحمل ذلك لو ظل الخلف، فيما بعد ملتزماً حد الاعتدال، ونقل بأمانة إلى المتأخرين القليل الذي وجده دون أن يدخل عليه بدعوى اختلقها هو."[1]

يشكك سبينوزا في نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى مستندًا إلى تناقضات داخل النص نفسه. فهناك مقاطع تشير إلى أن كاتبها عاش بعد موسى بزمن طويل، مثل:" ولم يعرف أحد قبره إلى هذا اليوم"[2]؛ هذه العبارة توضح أن الكاتب كان يعيش في زمن لم يكن فيه موقع قبر موسى معروفًا، مما يعني أن النص لم يكن مكتوبًا في حياته.

كذلك، يلاحظ سبينوزا أن بعض الأحداث المذكورة تعود إلى أزمنة لاحقة، مثل الإشارة إلى "ملوك إسرائيل "، وهو ما لم يكن له وجود في زمن موسى. يقول في هذا الصدد: وهكذا يجب

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص257
[2] المصدر نفسه، ص261

" أن نذكر أيضاً أن بعض الأماكن لم تطلق عليها الأسماء التي عرفت بها في زمن موسى، بل أطلقت عليها أسماء عرفت بعده بوقت طويل."[1]

إضافةً إلى ذلك، يشير سبينوزا إلى أن الأسفار الخمسة تتحدث عن موسى بصيغة الغائب، مما يدعم فكرة أن مؤلفها شخص آخر. ففي سفر العدد نجد:" وكان موسى رجلاً حليماً جدًا أكثر من جميع الناس..." الذين على وجه الأرض."[2]؛ وهذا لا يمكن أن يكون كلام موسى عن نفسه، بل شهادة كتبها مؤرخ لاحق.

من جهة أخرى، يرى سبينوزا أن هناك تلاعبًا بالنصوص ومحاولات لتفسيرها بشكل يخدم السلطة الدينية. وهو يعتبر أن كثيرًا من المفسرين الدينيين يلجؤون إلى تأويلات قسرية لتبرير التناقضات. يقول في هذا السياق:" فلقد فضل هذا المترجم بعد أن أقلقته هذه الصعوبة، أن يحرف الكتاب على أن يعترف بجهله."[3]

يستنتج سبينوزا أن التوراة لم تُكتب دفعة واحدة، بل تم تجميعها لاحقًا عبر مراحل متعددة، ويرجّح أن عزرا هو من قام بترتيبها وإضافة بعض التعديلات بما يخدم السلطة الدينية والسياسية في عصره. ينصّ:" الكتاب لا يذكر أحداً ازدهر في ذلك الوقت. سوى شهادة الكتاب الوحيدة لعزرا (انظر، عزرا)، (٧) (١٠) (٣٩) الذي عكف بحماس بالغ على دراسة شريعة الله وعرضها، وكان كاتباً ملماً كل الالمام بشريعة موسى. وإذن فنحن لا نجد شخصاً آخر سوى عزرا يمكن الإشتباه في أن يكون مؤلف هذه الأسفار."[4]؛ وفقًا لهذا التحليل، فإن التوراة ليست نصًا إلهيًا جامدًا، بل وثيقة تاريخية خضعت للتعديل وفقًا للظروف السياسية والاجتماعية. وهذا يقود سبينوزا إلى فكرة جوهرية أخرى، وهي أن الدين لا يجب أن يكون أداة للسلطة السياسية، بل يجب أن يظل محصورًا في المجال الأخلاقي.

---

[1] المصدر نفسه. ص262
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص261 بالتصرف
[3] المصدر نفسه. ص264
[4] المصدر نفسه، ص269

يرى سبينوزا أن العلاقة بين الدين والسياسة في العصور القديمة جعلت النصوص المقدسة تُستخدم كأداة للحكم والسيطرة، وليس فقط كوسيلة للهداية الروحية. وذلك في قوله:" أما أسفار صموئيل فليس هناك ما يدعو إلى التوقف عندها طويلاً لأن القصة تستمر بعد وفاته بوقت طويل."[1]؛ وهذا يدل على أن النصوص لم تكن مجرد روايات دينية، بل كانت تؤدي وظيفة سياسية تهدف إلى تبرير أنظمة الحكم السائدة.

من هنا، يظهر أن مشروع سبينوزا النقدي لا يتوقف عند مجرد تفنيد نسبة الأسفار إلى موسى، بل يمتد ليشمل تفكيك العلاقة بين السلطة الدينية والفكر الحر، وهي قضية جوهرية في فلسفته السياسية والدينية.

د/ ابحاث اخرى حول الاسفار نفسها: هل عزار هو آخر من صاغها ؟

يُظهر سبينوزا في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة نقدًا حادًا للطريقة التي جمعت بها الأسفار العبرية، موضحًا أنه ليست نصوصًا متجانسة كتبها مؤلف واحد، بل مجموعة من الروايات التي تم جمعها من مصادر متعددة دون تدقيق أو ترتيب صارم يشير إلى أن عزرا ليس المؤلف الحقيقي لهذه الأسفار ، بل مجرد جامع للنصوص، إذ يقول :إن عزرا الذي أعده المؤلف الحقيقي، طالما لم يبرهن لي أحد على مؤلف آخر ببرهان أكثر يقينا، لم يكن آخر من صاغ الروايات المتضمنة في هذه الأسفار ، وأنه لم يفعل أكثر من أنه جمع روايات موجودة عند كتاب متعددين، وفي بعض الأحيان كان يقتصر على نسخها، ونقلها على هذا النحو إلى الخلف دون فحصها أوترتيبها[2]"؛ هذا يدل على أن عملية التجميع لم تكن نقدية أو تحليلية، مما أدى إلى تناقضات وتكرارات في الروايات. يتجلى هذا التكرار في النصوص نفسها، حيث يلاحظ أن بعض القصص أعيدت بصيغ مختلفة، مما يدل على وجود مصادر متعددة لنفس الأحداث.

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص267
[2] المصدر نفسه، ص275

يضرب سبينوزا مثالاً بقصة حزقيا الواردة في سفر الملوك الثاني، حيث تتطابق إلى حد كبير مع الرواية نفسها في سفر أشعيا، مما يثير التساؤلات حول أصلها الحقيقي: " قصة حزقيا ابتداء من الآية 17، الإصحاح (18) من سفر الملوك الثاني نسخة من رواية أشعيا كما قلت في أخبار ملوكي هودا، ففي كتاب أشعيا المتضمن في أخبار ملوكي هودا..."[1]. هذه الظاهرة تظهر أن التوراة ليست سردا تاريخيا متسقا، بل مجموعة من الشذرات التاريخية التي يتم إدخالها في نص محدد دون دمج فعلي أو تعديلي ضمن انسجامها.

كما يتناول سبينوزا مشكلة التناقضات الزمنية، حيث يرى أن بعض الأحداث لا تتناسب مع الإطار الزمني المفترض، مثل قصة يهوذا وثامار التي يصعب تصور وقوعها خلال الفترة القصيرة بين نزول يوسف إلى مصر وذهابه يعقوب مع عائلته إليها:" فالواقع أنهم منذ نزول يوسف مصر لأول مرة حتى ذهاب يعقوب مع جميع أفراد عائلته إلى هذا البلد نفسه، لا نستطيع أن نعد أكثر من اثنتين وعشرين سنة ... ومع ذلك لا يمكن أن أتصور حدوث كل هذه الأشياء في مثل هذا الوقت القصير ..."[2]

هذا التناقض يجعل من الصعب قبول الرواية كحدث تاريخي دقيق، بل يشير إلى أنها كتبت على مراحل من قبل مؤلفين مختلفين دون تنسيق زمني واضح. إلى جانب التناقضات الزمنية، يبرز سبينوزا مسألة الأخطاء السردية التي تنتج عن تعدد المؤلفين، وهو ما يتجلى في سفر القضاة، حيث يلاحظ وجود فجوات في السرد، إذ يتساءل: فلو أراد أن يواصل الخط الرئيسي في قصته، فكيف كان يمكنه أن يربط ما قاله قبل ذلك مباشرة، بالرواية التي يبدأها عن يشوع نفسه؟"[3]. هذا يوضح أن العمل لم يكن نتيجة لتخطيط متماسك، بل كان أشبه بمحاولة لجمع نصوص متفرقة دون مراجعة شاملة.

---

[1] المصدر نفسه سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص275

[2] المصدر نفسه، ص278

[3] المصدر نفسه، ص280

كما يركز سبينوزا على قضية الاختلافات في حساب السنين، حيث يشير إلى أن الفترات الزمنية الواردة في التوراة حول الحكم والخروج من مصر لا تتطابق عند جمعها، إذ يقول:

ومع ذلك فلنترك هذا الموضوع، لننتقل إلى حساب السنين... فيكون مجموع الأعوام التي انقضت ٥٨٠ عاما."[1]" بينما يذكر سفر الملوك الأول أن بناء الهيكل ثم بعد 480 عاما فقط من الخروج، مما يكشف عن عدم تناسق داخلي في النصوص.

وفي نقده الطريقة تفسير رجال الدين لهذه التناقضات، يشير سبينوزا إلى أنهم غالبا ما يبررون الأخطاء بطرق عسفية تفرض معاني غير منطقية على النصوص، معتبرين أنهم يستغلون هذه التفسيرات للحفاظ على سلطتهم الدينية: ولست أدري إن كان ذلك ناجما عن اختلال العقل أم أنهم قالوا ذلك بدافع الغرور والخبث حتى يعتقدوا أنهم وحدهم الأمناء على أسرار الله؟"[2]". هذا النقد يعكس رؤية سبينوزا بأن النصوص المقدسة ليست محصنة من التعديلات والتأويلات البشرية، بل هي نتاج ظروف تاريخية واجتماعية أثرت على محتواها.

إضافة إلى ذلك، يشير سبينوزا إلى أن النصوص تعرضت لتعديلات على مر الزمن، سواء بإضافة تعليقات هامشية أو بإدخال قراءات مختلفة، موضحا أن بعض الأجزاء من النصوص المقدسة قد تكون نتيجة لإعادة الصياغة اللغوية، كما ينصّ بأنّ: "ليست كل التعليقات الهامشية قراءات مشكوكا فيها، بل إن منها أيضا ما يصحح أساليب الكلام التي تعدت تستعمل، أعني الكلمات التي عفا عليها الزمان، وتلك التي تعدت الأخلاق الحسنة تسمح باستعمالها."[3]

هذا يوضح أن النصوص لم تكن ثابتة، بل خضعت لعمليات تنقيح وتفسير وفقا للظروف التاريخية والثقافية.

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص281
[2] المصدر نفسه، ص 289
[3] المصدر نفسه، ص292

كما يشير إلى مشكلة النصوص المفقودة، حيث يلاحظ وجود فجوات واضحة في بعض الروايات، مثل القصة الناقصة لحوار قابيل مع هابيل: وقال قابيل لهابيل أخيه ... فلما كان في الصحراء قابيل ... الخ"، ونحن هنا لا نستطيع أن نعلم ماذا قال قابيل لأخيه. فها هنا جزء مفقود.[1]"

هذه الظاهرة تدعم فكرة أن النصوص تعرضت للحذف أو الإضافة، مما يجعل من الصعب التعامل معها كمصدر تاريخي موثوق من خلال هذا التحليل، يكشف سبينوزا عن رؤيته بأن التوراة ليست نصاً موحداً أنزل دفعة واحدة، بل هي مجموعة نصوص جمعت عبر الزمن متأثرة بالتحريف والتعديل والتفسيرات اللاحقة، مما يجعلها أقرب إلى مجموعة من الوثائق التاريخية المتنوعة التي تعكس تطورات دينية وسياسية أكثر من كونها سجلاً دقيقاً للوحي الإلٰهي.

هـ/ فحص باقي اسفار العهد القديم بالطريقة نفسها:

يقدم سبينوزا في هذا النص تحليلا نقديا تاريخيا لأسفار العهد القديم، مشيرا إلى تعدد مصادرها وعدم تجانسها، حيث يرى أن هذه النصوص لم تكتب دفعة واحدة ولا من قبل مؤلف واحد، بل تم تجميعها على مر العصور، مع فقدان أجزاء منها واضافة تعديلات لاحقة. يثير تساؤلات حول مدى مصداقية النقل، مشككا في دور الأحبار في تقرير قدسيتها.

كما يرى أن بعض الأسفار كتبت بعد زمن طويل من الأحداث التي تصفها، مما يجعلها أقرب إلى روايات تاريخية مجمعة بدلا من نصوص موحى بها. يستشهد مثلا بسفري الأخبار، حيث يشير إلى أن الراوي يذكر أسماء أشخاص وحراس أبواب الهيكل بعد زمن عزرا، مما يدل على أن هذه النصوص جاءت بعد إعادة بناء الهيكل بفترة طويلة: إذ يخبرنا الراوي في الإصحاح 9 من السفر الأول عن الأسر التي كانت تسكن أورشليم في الأصل، وبعد ذلك يذكر أسماء حراس الباب."[2] ؛ يستنتج من ذلك أن هذه الأسفار لم تكتب في زمن

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص296
[2] المصدر نفسه، ص298

عزرا بل بعده بفترة طويلة، متسائلا عن كيفية اعتبارها كتبا مقدسة بينما استبعدت كتب أخرى مثل سفر الحكمة وسفر طوبي.

عند الحديث عن المزامير، يلاحظ سبينوزا أنها جمعت بعد إعادة بناء المعبد، مستشهدًا بفيلون اليهودي: ويشهد فيلون اليهودي بأن المزمور 88 قد كتبه الملكيواكين في السجن في بابل، وكتب المزمور 89 بعد إطلاق سراحه."[1]

كما يشير إلى أن بعض أمثال سليمان لم تكتب في زمنه بل جمعت لاحقا، كما يظهر من الآية التي تذكر أن بعض الأمثال نقله رجال القيام ليهوذا، يرى أن اختيار هذه الكتب وإقصاء غيرها لم يكن عملية موضوعية تماما، بل تأثر بالسلطة الدينية والسياسية الرجال الدين، فيما يخص أسفار الأنبياء، يرى سبينوزا أنها غير مرتبة زمنيا، بل تبدو مجمعة من مصادر مختلفة دون تسلسل منطقي في سفر إرميا، يلاحظ أن السرد غير منظم، حيث نجد الإصحاح 21 يتحدث عن القبض على النبي، ثم في الإصحاح 22 يظهر خطاب أمام الملك يوياكين، ثم يعود الإصحاح 25 إلى وحي سابق زمنيا : الإصحاح 21 يشير إلى سبب القبض على إرميا، ثم تتقطع الرواية، وفي الإصحاح 22 نجد خطابًا أمام يوياكين، وبعد ذلك يعود في الإصحاح 25 إلى وحي حدث قبل ذلك"[2]؛ هذه الفوضى في الترتيب تدل على أن الكتاب مأخوذ من مصادر مختلفة وليس نصا موحدا كما يعتقد.

يشير سبينوزا أيضًا إلى أن بعض الكتب لم تصل إلينا كاملة، حيث يلاحظ أن سفر حزقيال يذكر أن النبي بدأ نبوته وهو في الثلاثين من عمره، مما يدل على وجود نص أقدم لم يُحفظ

فالإشارة إلى عمر النبي الذي بلغ ثلاثين عامًا عندما بدأ السفر، تدل على أن الأمر لا يتعلق ببداية النبوة، بل باستمرار لها"[3]

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص299
[2] المصدر نفسه، ص300-301
[3] المصدر نفسه ص303

كما يستشهد بيوسفوس الذي ذكر نبوءات لحزقيال لا نجدها في النص الحالي، مما يؤكد أن أجزاء من السفر فقدت أو استبعدت، يطرح سبينوزا تساؤلات حول أصالة بعض الأسفار مثل سفر أيوب، الذي يرى أن أسلوبه الأدبي والفلسفي يجعله أقرب إلى نص مأخوذ من ثقافات غير يهودية، مستشهدًا بابن عزرا:

يؤكد ابن عزرا في شرحه لهذا السفر أنه ترجم إلى العبرية من لغة أخرى"[1]

كذلك، يلاحظ أن سفر دانيال المكتوب جزئيا باللغة الكلدانية، مما يعني أنه مأخوذ من مصادر كلدانية وليس نصا عبرنا أصيلا: "ولنتقل الآن إلى سفر دانيال هذا السفر يحتوي بلا شك على نفس النص الذي كتبه واتيال ابتداء من (الاصحاح (٨)، أما الاصحاحات السبعة الأولى (٢٦) فلا أعلم مصدرها، ولما كانت باستثناء الاصحاح الأول مكتوبة باللغة الكلدانية (٢٧) فيمكننا أن نفترض أنها أخذت من كتب الأخبار الكلدانية."[2]

ينتقد سبينوزا أيضا طريقة جمع الأسفار ونقلها، متسائلا عن مدى دقة الأحبار في حفظ النصوص، حيث فقدت بعض الكتب بالكامل مثل كتاب مردخاي مما يعني أن ما لدينا هو فقط الأجزاء التي قرر رجال الدين الحفاظ عليها: الأسفار قد دونت في وقت مبكر أم في وقت متأخر فقد تسربت إليها أخطاء كثيرة بسبب سرعة الناسخين الفائقة على ما أعتقد."[3]

كما يشير إلى أن بعض النبوءات تحتوي على تناقضات واضحة، مثل نبوءة إرميا بشأن الملك يهوياكيم، حيث يقول النبي في الإصحاح 22 إنيكونيا الذي لن يكون له نسل يجلس على عرش داود لكن في مواضع أخرى نجد أن نسله قد حكم بالفعل: أعني في السنة الرابعة من حكم يواكين (١٢). وتحتوي الاصحاحات التالية على الوحي الذي حدث للنبي في السنة الأولى لحكم الملك، وتستمر في تكديس النبوات دون أية مراعاة لترتيبها الزمني، حتى تستأنف أخيراً

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص304
[2] المصدر نفسه. ص305
[3] المصدر نفسه، ص310

في (الاصحاح (٣٨) الرواية التي بدأت في (الاصحاح (٢١) (وكان الاصحاحات الخمسة عشر الواقعة بين الاصحاحين مجرد استطراد (١٣)، فالواقع أن السياق الذي يبدأ به الاصحاح ٣٨ يرتبط بالآيات (٨، ٩ ، (١٠) من (الاصحاح (٢١) (١٤) ، ثم تحشر في هذا الموضع رواية عن القبض على ارميا في المرة الأخيرة مختلفة تماماً عن رواية الاصحاح."[1] كما يتكرر الأمر مع الملك صدقيا، حيث تتنبأ الآية 5 من الإصحاح 34 بأنه سيموت بسلام، في حين أن الواقع أنه قبض عليه، وسمل تعييناه، وشاهد قتل أبنائه أمامه، وهو ما لا يتفق مع النبوءة : ولست أدري أيضاً كيف استطاع أن يقول عن صدقيا الذي قتل تعييناه عند ما رأى أطفال هي يقتلون: بل تموت بسلام."[2]

يصل سبينوزا إلى أن عملية تحديد الأسفار المقدسة لم تكن ثابتة منذ البداية، بل تم الاختيار لاحقا من قبل الفريسيين في عهد المكابيين، مستشهدًا بالتلمود الذي يذكر أن بعض الكتب كانت تستبعد مثل سفر الجامعة وسفر الأمثال: "وأرادوا أيضا إخفاء سفر الأمثال، وكان هذا الرجل المدعو يخونيا مشهورا بحرصه وعنايته إذ لولاها لاختفى سفر حزقيال لأن أقواله تناقض أقوال الشريعة"[3]

يرى أن تحديد قدسية هذه النصوص كان قرارًا بشريا وليس وحيًا إلهيا، مما يثير تساؤلات حول مدى صحة اعتبارها نصوصا مقدسة على الإطلاق.

يخلص سبينوزا إلى أن العهد القديم ليس نضا إلهيا نزل بوحي مباشر، بل هو مجموعة نصوص بشرية تمت تجميعها عبر الزمن مع فقدان أجزاء منها وإضافة أخرى وفقا للاعتبارات الدينية والسياسية، ويرى أنه من يريد إثبات قداستها عليه أن يثبت أصل كل كتاب على حدة، وليس مجرد افتراض أن جميعها موحى به لمجرد أنها جمعت في كتاب واحد "ومن يريد التأكد من

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص301
[2] المصدر نفسه. ص312
[3] المصدر نفسه، ص314

سلطة جميع هذه الأسفار، عليه أن يضع نفسه في هذا المجلس وأن يبدأ المداولات مطالبا بمعرفة أحقية كل منها بأن تكون له هذه السلطة."[1]

3. العقل والإيمان: من الإيمان البسيط إلى العقلانية في اللاهوت:

أ/ فيما كان الحواريون قد كتبوا رسائلهم بوصفهم حواريون وانبياء ام بوصفهم معلمين، ثم في دور الحواريين:

يطرح سبينوزا تصورًا عقلانيًا للدور الحواريين، معتبرًا أن رسائلهم لم تكن نتيجة وحي مباشر، بل نتاج اجتهادات بشرية تستند إلى النور الطبيعي، أي إلى قدراتهم العقلية الخاصة. فهو يرى أن الحواريين، رغم مكانتهم في نقل تعاليم المسيح، لم يكونوا مجرد أدوات للوحي، بل كانوا معلمين يستخدمون حكمتهم الشخصية في نشر الدين، "ولكن لما كان علينا أن نسلم بأن رسائل الحواريين قد كتبت بوحي من النور الطبيعي وحده، فعلينا الآن أن نرى كيف استطاع الحواريون بالمعرفة الطبيعية وحدها أن يبشروا بما لا يدخل في طاقها."[2]

سبينوزا يرفض الفكرة القائلة بأن الحواريين كانوا مجرد ناقلين سلبيين للوحي، بل يؤكد أنهم كانوا أصحاب اجتهادات فكرية، وبالتالي، فإن فهمهم للدين تأثر بظروفهم وثقافاتهم الشخصية. هذه النظرة تضع الدين في سياق بشري، حيث يصبح التبشير فعلًا بشريًا خاضعًا للعقل والتأمل وليس مجرد نقل حرفي للوحي الإلهي." فمع أن مضمون التوراة يتعدى دائماً حدود فهمنا إلا أننا نستطيع أن نعمل على توضيحه ونحن مطمئنون، بشرط ألّا نسلم بمبادئ سوى تلك التي نستخلصه من الكتاب نفسه."[3]؛ في هذا السياق، يُظهر سبينوزا أن الدين، كما بشّره الحواريون، لم يكن في نهايته نتاجًا للعقل، لكنه كان يحمل بعدًا أخلاقيًا يمكن إدراكه بالفطرة الإنسانية. وهذا ما يجعل رسائلهم تحمل طابعًا مزدوجًا: فمن جهة، هي انعكاسات

[1] المصدر نفسه. ص314
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص322
[3] المصدر نفسه، ص322

لتعاليم دينية، ومن جهة أخرى، هي اجتهادات شخصية تعكس أساليبهم الفردية في التبشير. " لم يكن الحواريون في حاجة إلى نور يعلى على الطبيعة ليكَوّنوا الدين – بعد أن أثبتوا صدقهم قبل بالآيات – حسب فهم الناس، حتى يسهل على كل نفس قبوله..."[1]؛ يركز سبينوزا أيضًا على فكرة الاختلاف بين الحواريين في طريقة عرضهم للدين، حيث لم يلتزموا بنهج موحد، بل اختار كل منهم أسلوبًا يناسب جمهوره. هذا الاختلاف لم يكن عشوائيًا، بل كان نابعًا من فهمهم لدورهم كمعلّمين، وليس فقط كرسل.

"ونستطيع هنا بالفعل أن نلجئ إلى العقل الذي يقرر تمامًا أن من له سلطة التعليم تكون له أيضًا سلطة اختيار الطريق الذي يفضله."[2]

يظهر هذا الاختلاف بوضوح في التناقض بين بولس ويعقوب حول مفهوم الخلاص. بولس يؤكد على الإيمان وحده، في حين يشدد يعقوب على أهمية الأعمال. هذه التناقض أتت عكس ليس فقط رؤى مختلفة، بل أيضًا تأثير كل حواري بالسياق الاجتماعي والثقافي لجمهوره. " فلكي يثبت بولس للناس في الدين، ويبين له بأن الخلاص لا يتم إلا بالفضل الإلهي، علمهم أنه لايحق لأحد أن يتفاخر بأفعاله، بل بإيمانه فقط يظهر هذا الاختلاف بوضوح في التناقض بين بولس ويعقوب حول مفهوم الخلاص. بولس يؤكد على الإيمان وحده، في حين يشدد يعقوب على أهمية الأعمال. هذه التناقضات تعكس ليس فقط رؤى مختلفة، بل أيضًا تأثير كل حواري بالسياق الاجتماعي والثقافي لجمهوره. " فلكي يثبت بولس للناس في الدين، ويبين لهم أن الخلاص لا يتم إلا بالفضل الإلهي، علمهم أنه لا يحق لأحد أن يتفاخر بأفعاله، بل بإيمانه فقط."[3]

[1] المصدر نفسه، ص323
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص223
[3] المصدر نفسه، ص224

" أما يعقوب، فعلى العكس من ذلك، يدعو في رسالته إلى أن خلاص الإنسان يتم بأعماله لا بإيمانه فقط في هذه الاختلافات الجوهرية، يرى سبينوزا السبب في الانقسامات العقائدية التي لا تزال الكنيسة تعاني منها حتى اليوم. ويعتبر أن هذا الانقسام ناتج عن ارتباط الدين بالفلسفة والتفسيرات البشرية، مؤكدًا أن الدين لن يجد استقراره الحقيقي إلا عندما يتم فصله عن التأملات الفلسفية ويعود إلى بساطته الأولى. " لا شك أن هذا الاختلاف في الأسس التي يقيم عليها الحواريون، والذي كان سببًا للكثير من المنازعات والانقسامات التي ما زالت تعاني منها الكنيسة منذ زمن الحواريين – لا شك أنها ستظل تعاني منها إلى الأبد، حتى يأتي اليوم الذي ينفصل فيه الدين أخيرًا عن التأملات الفلسفية"[1].

" وفي النهاية، يشير سبينوزا إلى أن الحواريين تكيّفوا مع بيئاتهم المختلفة؛ فكان بولس أكثر ميلًا للفلسفة لأنه خاطب الأمم الوثنية، بينما تجنب الآخرون الفلسفة عند مخاطبة اليهود الذين كانوا يميلون إلى رفضها أما الآخرون الذين كانوا يبشرون لليهود، المعروفين باحتقارهم للفلسفة، فقد تكيفوا حسب روح اليهود، وعلّموا الدين مجردًا، خلوًا من أية تأملات فلسفية."[2]؛ من خلال هذه القراءة، يمكننا أن نفهم أن سبينوزا يقدم رؤية نقدية لتاريخ التبشير المسيحي، حيث يعتبر أن الدين لم يكن وحدة متجانسة منذ البداية، بل كان دائمًا موضوعًا للتأويل والتكيف. وهذه الفكرة تشكل جوهر فلسفته الدينية، حيث يسعى إلى تحرير الدين من الخرافات وردّه إلى نطاق العقل والطبيعة الإنسانية.

ب/ في الميثاق الحقيقي للشريعة الالهية:

يبدو أن سبينوزا في هذا الفصل يحاول أن يحرر مفهوم "كلام الله" من القيود اللاهوتية التقليدية، متناولًا بالتحليل طبيعة الوحي والكتاب المقدس، ومدى ارتباطه بالعقل الإنساني. ينطلق سبينوزا من نقد الفكرة القائلة بأن الكتاب المقدس هو نص إلهي ثابت غير قابل للتحريف، مؤكدًا أن

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص225
[2] المصدر نفسه، ص225

النصوص الدينية ليست سوى وسيلة لنقل الفكرة الإلهية، لكنها ليست الحقيقة المطلقة نفسها.بالإضافة الى ذلك يرى ان : "نصوص الأنبياء والحواريين نفسها هي التي تشهد أكثر مما يشهد العقل نفسه بأن كلام الله الأبدي، وعهده، والدين الحق، مسطور على نحو إلهي في قلب الإنسان أي في الفكر الإنساني، وهذا هو الميثاق الحقيقي الذي طبعه الله بخاتمه."[1] هنا، يقدم سبينوزا تصورًا مختلفًا للوحي، حيث لا يكون مجرد كلمات مكتوبة، بل هو حقيقة عقلية وروحية تنكشف للإنسان في وعيه الداخلي.

ويواصل سبينوزا تحليله بالإشارة إلى أن الشريعة الإلهية ليست بالضرورة نصوصًا جامدة، بل إن جوهرها يكمن في كونها نقشت في قلوب البشر. يستشهد بموسى وإرميا ليدعم فكرته، إذ يظهر ذلك في قوله: "ولكن موسى (التثنية، 30:6) وإرميا (31:33) تنبآ بأن زمانًا سيأتي يسطر الله فيه الشريعة في قلوبهم."[2] هنا، يشير إلى أن القوانين الدينية المكتوبة لم تكن سوى وسيلة انتقالية تناسب مستوى الوعي البشري في فترة معينة، لكنها ليست التعبير النهائي عن الدين. يلمح سبينوزا إلى أن تمسك الناس الحرفي بالنصوص قد يؤدي إلى تحجر الفكر الديني، في حين أن الدين الحقيقي هو تجربة داخلية ترتبط بالعقل والتأمل.

ثم يحذر سبينوزا من خطورة التقديس المبالغ فيه للنصوص، موضحًا أن هذا قد يقود إلى عبادة شكلية للنصوص بدلًا من البحث عن جوهر الحقيقة الإلهية ينقل عنه: "أخشى أن يؤدي التطرف في التقديس إلى تحويل الدين إلى خرافة، وأن ينصرف الناس إلى عبادة التماثيل والصور، أي الورق المسود، بدلًا من كلام الله."[3] هنا، يبدو أن سبينوزا ينتقد الميل إلى التعامل مع الكتب المقدسة وكأنها كيانات بحد ذاتها، بدلًا من اعتبارها مجرد وسيلة لفهم القانون الإلهي. يرى أن التقديس الجامد يؤدي إلى تعطيل العقل، ويحرم الإنسان من استيعاب الرسالة الإلهية بعمقها الحقيقي.

---

[1] المصدر نفسه، ص327

[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره،ص 327- 328

[3] المصدر نفسه، ص328

ويواصل سبينوزا تطوير فكرته حول قدسية الكتاب المقدس، معتبرًا أن القدسية ليست صفة ثابتة في الكتاب نفسه، بل تعتمد على كيفية استخدامه وفهمه. بحيث: "لا يظل الشيء مقدسًا إلاَ إذا استمر الناس في استخدامه على نحو ديني. فإذا لم يعودوا أتقياء، ضاعت قدسية ما كان مقدسًا من قبل."[1] وفقًا لهذا الطرح، فإن الكتاب المقدس ليس مقدسًا بذاته، بل يصبح كذلك عندما يؤدي دورًا في إرشاد الناس نحو الفضيلة والتقوى. هذا يعني أن قدسيته ليست جوهرية أو مطلقة، بل تتغير بتغير ظروف استعماله.

أما فيما يخص مفهوم "كلام الله"، فيحاول سبينوزا أن يحرره من حصره في نصوص محددة، موضحًا أن الحقيقة الإلهية تتجاوز أي كتاب ديني. يصرح قائلا: "عندما يوصف شيء لا يكون هو الله نفسه، بأنه كلام الله، فإن المقصود بذلك هو هذا القانون الإلهي الذي عرضنا له في الفصل الرابع، أي هذا الدين الشامل، أو الكاثوليكي، الذي يشارك فيه الجنس البشري كله."[2] هنا، يوسع سبينوزا دائرة المفهوم، موضحًا أن الدين ليس مجرد نصوص مقدسة بل هو وعي إنساني مشترك، يتجلى في المبادئ الأخلاقية الكونية.

ثم يتناول مسألة جمع الكتاب المقدس، فيؤكد أنه لم يكن هناك تفويض إلهي مباشر لجمعه، بل كانت هذه عملية بشرية خاضعة للظروف التاريخية. يذكر في هذا أنه: "لم تدون أسفار العهدين القديم والجديد بتفويض خاص في عصر واحد، يسري على كل الأزمان، بل جاء تدوينها مصادفة، وقصد بها أناس معينون."[3] هذه الفكرة تضعف الادعاء بأن الكتاب المقدس قد نزل كاملًا ومتناسقًا، وتفتح الباب أمام إمكانية تعرضه للتحريف أو التعديل عبر العصور.

ويشير سبينوزا إلى أن الأنبياء أنفسهم لم يكونوا ناقلين حرفيين للحقيقة الإلهية، بل كانت معرفتهم وتأويلاتهم متأثرة بظروفهم الشخصية والإجتماعية. يقول: "تختلف معرفة الكتاب وفكر

[1] المصدر نفسه، ص329
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص332
[3] المصدر نفسه، ص333

الأنبياء عن فهم فكر الله أي الحقيقة."[1] أي أن الكتاب المقدس ليس بالضرورة انعكاسًا دقيقًا لإرادة الله، بل هو تفسير بشري لها.

ثم يناقش مسألة اختيار الأسفار المقدسة، موضحًا أنها لم تكن عملية إلهية بل خضعت لقرارات المجامع الدينية. يرى أنه: "تم اختيار أسفار العهد القديم من بين أسفار كثيرة أخرى، ثم جمعها وأقرها مجلس الفريسيين."[2] هذا يعني أن بعض الكتب اعتُبرت مقدسة، بينما تم استبعاد أخرى، ليس بناءً على وحي إلهي، بل وفق معايير وضعها رجال الدين.

كما يعيد النظر في طبيعة الحواريين، مشيرًا إلى أنهم لم يكونوا أنبياء بل معلمين وفقهاء، مما يعني أن كتاباتهم ليست نصوصًا نبوية بالمفهوم التقليدي. استند بذلك في قوله: "لم يكتب الحواريون كما قلنا في الفصل السابق بوصفهم أنبياء بل بوصفهم فقهاء، واختاروا أسهل الطرق لتعليم التلاميذ."[3] هذا الطرح يتحدى الاعتقاد بأن العهد الجديد هو وحي مباشر لا يقبل التغيير.

أما فيما يخص تعدد الأناجيل، فيطرح سبينوزا تساؤلًا مهمًا حول سبب وجود أربع روايات مختلفة لسيرة المسيح، فيتساءل: "من منا يستطيع أن يعتقد أن الله أراد أن يقص سيرة المسيح وأن يبلغه للبشر أربع مرات؟"[4] لكنه يستدرك بأن تعدد الأناجيل لا يعني أنها متناقضة أو غير ضرورية.

ثم يصل إلى فكرة جوهرية وهي أن الكتاب المقدس لا يمكن اعتباره كلام الله إلا من الناحية الدينية، وليس من حيث كونه نصًا تاريخيًا دقيقًا وهكذا بينا أن: "الكتاب قد سمي عن حق كلام الله، وذلك من وجهة نظر الدين وحدها، أي من وجهة نظر القانون الإلهي الشامل."[5] أي أن قيمته تكمن في تعاليمه الأخلاقية وليس في دقته كمصدر تاريخي.

---

[1] المصدر نفسه. ص 333
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 333
[3] المصدر نفسه، ص 334
[4] المصدر نفسه، ص 334
[5] المصدر نفسه. ص334

وفيما يخص مسألة التحريف، يرى سبينوزا أن المعنى الإلهي للكتاب المقدس قد يكون تغيرت بعض كلماته، لكنه ظل محافظًا على جوهره. يوضح أن: "المعنى الذي من أجله وحده يسمى النص إلهيًا، وصل إلينا دون تشويه، وإن كانت الكلمات التي استخدمت أولًا للتعبير عنه قد تغيرت مرات كثيرة."[1] أي أن التعاليم الأخلاقية الأساسية بقيت كما هي، رغم التعديلات النصية.

يختتم سبينوزا حجته بالتأكيد على أن التعاليم الجوهرية للدين لا يمكن أن تكون قد تعرضت لتحريف جوهري، لأن أي تغيير جذري فيها كان سيؤدي إلى انهيار العقيدة كلها. يشير إلى أنه: " لو كان الكتاب قد أعطى تعاليم مختلفة، لاختلفت تعاليمه أيضًا في جميع الموضوعات الأخرى، لأن هذه الوصية أساس الدين كله، بحيث أن محوها يؤدي إلى هدم البناء كله في الحال."[2] مما يعني أن قيم العدل والمحبة ظلت ثابتة حتى لو تغيرت بعض التفاصيل.

بناءً على هذه التحليلات، يمكن القول إن سبينوزا يسعى إلى إرساء قراءة عقلانية للكتاب المقدس، حيث يرى أن جوهره الأخلاقي محفوظ، لكن نصه قد تعرض لتغيرات بشرية عبر الزمن.

ج/ في ان الكتاب لا يحتوي الا على تعاليم بسيرة للغاية ولا يحث الا على الطاعة:

يُبرز سبينوزا في هذا المقطع رؤيته الخاصة لطبيعة الكتاب المقدس، حيث يؤكد أن الغاية الأساسية منه ليست تقديم معرفة فلسفية أو لاهوتية معمقة، بل فقط ترسيخ الطاعة من خلال تعليمات بسيطة وسهلة الإدراك فيه نبين: " أن الكتاب لا يحتوي إلا على تعاليم يسيرة للغاية ولا يحث إلاَ على الطاعة وتقتصر عقيدته في الطبيعة الإلهية على ما يمكن اتخاذه قاعدة عملية في حياة الناس اليومية."[3] هذا التصور يتوافق مع موقفه العام من الدين، حيث يرى أن

[1] المصدر نفسه. سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، 335
[2] المصدر نفسه، ص335
[3] الصدر نفسه، ص337

جوهره لا يكمن في التأملات النظرية، بل في الممارسات الأخلاقية التي توجه سلوك الأفراد والمجتمع.

وفي موضع آخر، يؤكد سبينوزا أن الأنبياء لم يكن لديهم معرفة فلسفية عميقة، بل امتلكوا فقط قدرة خاصة على الخيال جعلتهم قادرين على التأثير في الناس، حيث: "بينا في الفصل الثاني من هذه الرسالة أن الأنبياء كانت لهم مقدرة فريدة على الخيال وحده، لا على المعرفة، وأن الله لم يوح لهم بأمور فلسفية عميقة، بل بأفكار يسيرة للغاية، وضعت بحيث تلائم الأحكام المسبقة لكل نبي."[1] هذا يعني أن الخطاب الديني لم يكن خطابًا عقلانيًا موجهًا إلى الفلاسفة، بل خطابًا يستهدف العامة، مستفيدًا من الأساليب البلاغية والتاريخية لتثبيت العقيدة في النفوس كما يضيف: " لذلك لم يستعمل المنهج الإستنباطي الذي يبدأ من بديهيات وتعريفات تتسلسل منها القضايا، ولكنه اقتصر على إعطاء حقائق يقصد منها أن يؤمن بها الناس، ثم أيدها بالتجربة وحدها، أي بالمعجزات وبالروايات التاريخية."[2]

ويشير سبينوزا إلى أن الغموض الظاهر في الكتاب المقدس لا يعود إلى عمق الأفكار المطروحة فيه، بل إلى طبيعة اللغة المستخدمة، حيث يقول: "وأخيراً بينا في الفصل السابع أن الصعوبة كلها في فهم دروس الكتاب ترجع إلى اللغة وحدها، لا إلى عمق الموضوع، لا سيما أن الأنبياء لم يبشروا لاهوتيين متعمقين، بل بشروا كل اليهود على الإطلاق، كما اعتاد الحواريون عرض عقيدة الإنجيل في الكنائس، حيث يجتمع عامة المؤمنين."[3] هنا يوضح أن التعاليم الدينية كانت موجهة إلى الجميع، ولم تكن تستهدف طبقة نخبوية من الفلاسفة أو اللاهوتيين.

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 337
[2] المصدر نفسه ص337
[3] المصدر نفسه، ص338

ومن خلال هذا الطرح، ينتقد سبينوزا بشدة الاتجاهات اللاهوتية التي حاولت تحويل الدين إلى مجال للتأمل الفلسفي، حيث يعبر عن دهشته من بعض رجال الدين الذين يرون في الكتاب المقدس أسرارًا فلسفية عميقة، يشير: "لذلك أجد نفسي عاجزاً عن التعبير عن دهشتي من التكوين الذهني لأولئك الذين تحدثت عنهم من قبل، والذين يرون في الكتاب أسراراً بلغت من العمق حداً لا يمكن معه شرحها بأية لغة، والذين أقحموا في الدين من التأملات الفلسفية ما جعل الكنيسة تتحول إلى أكاديمية، والدين يصبح علماً، بل جدلاً."[1] هذا النقد يعكس موقفه الرافض لخلط الدين بالفلسفة، إذ يرى أن كلًا منهما له مجاله الخاص، فالدين يهتم بالطاعة والسلوك، بينما تهدف الفلسفة إلى البحث في الحقيقة من خلال العقل.

وفي إطار تفكيكه لمفهوم "المعرفة الإلهية"، يميز سبينوزا بين المعرفة العقلية لله، التي لا يطالب بها جميع الناس، وبين المعرفة التي طلبها الله من البشر والتي تنحصر في العدالة

والإحسان كما يصرح: "أولاً أن المعرفة العقلية؛ أي المعرفة الصحيحة لله، ليست كالطاعة هبة لكل المؤمنين. ثانياً أن المعرفة الوحيدة التي طلبها الله من جميع الناس بلا استثناء، على لسان الأنبياء، والتي لا يمكن إعفاء أحد منها، هي معرفة العدالة الإلهية والإحسان الإلهي."[2] وهنا يضع سبينوزا الأساس لفكرته الجوهرية بأن الدين لا يتطلب فهمًا فلسفيًا للطبيعة الإلهية، بل فقط الالتزام بالقيم الأخلاقية التي تؤدي إلى الطاعة.

ولتعزيز حجته، يستشهد سبينوزا بنصوص من الكتاب المقدس، ويشير إلى ما ورد في سفر الخروج حول كيفية إدراك الأنبياء لله، حيث يوضح أن: "هناك نص واضح كل الوضوح في سفر الخروج يقول الله فيه لموسى كي يبرز له عظمة الفضل الذي أكرمه به: أنا الذي تجليت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب إلهاً قادراً على كل شيء، وأما أسمي يهوه فلم أعلنه لهم."[3] ومن

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ، ص338
[2] المصدر نفسه، ص339
[3] المصدر نفسه، ص339

خلال هذا النص، يستنتج أن معرفة الله لم تكن متاحة للجميع بنفس الدرجة، وإنما كانت تجربة خاصة ببعض الأنبياء، مما يؤكد فكرته بأن المعرفة العميقة ليست جوهر الدين، بل الطاعة وحدها.

ويؤكد سبينوزا على أن الكتاب المقدس لم يسعَ إلى تقديم تعريف دقيق لله، بل ركز فقط على صفاته الأخلاقية التي تصلح كقاعدة للسلوك الإنساني. حيث يقول: "وهكذا يرى " إرميا وموسى ويوحنا أن معرفة الله التي يلتزم بها كل فرد تنحصر في عدد قليل جداً من الصفات، هي، كما عرضنا، أن الله عادل عدلاً مطلقاً ورحيم رحمة مطلقة، أي أنه النموذج الفريد للحياة الحقة."[1] هنا يقدم سبينوزا تصورًا عمليًا للدين، حيث لا يكون الإيمان مبنيًا على تأملات ميتافيزيقية، بل على مبادئ أخلاقية واضحة وسهلة الفهم.

وينتقد بشدة أولئك الذين يحاولون تحميل الكتاب المقدس معاني فلسفية معقدة، مشيرًا إلى أن هذا النهج يتناقض مع طبيعة النص الديني ذاته وعليه إن الواقع يشير إلى " أن الكتاب يتحدث على مستوى فهم العامة الذين يهدف الكتاب إلى أن يجعلهم مطيعين لا متفقهين، على أن عامة اللاهوتيين عندما أدركوا بالنور الطبيعي أن صفة معينة من هذه الصفات التي تعطي الله لا تتفق مع الطبيعة الإلهية طالبوا بالالتجاء إلى التفسير المجازي، وبأن من الواجب على العكس من ذلك، أن يقبل حرفياً كل ما يتجاوز حدود فهمهم."[2] في هذا النقد، يسلط سبينوزا الضوء على التناقضات التي يقع فيها اللاهوتيون عندما يحاولون تقديم تفسيرات فلسفية للدين، في حين أن جوهره يكمن في الإيمان والطاعة وليس في البحث العقلي.

وأخيرًا يخلص سبينوزا إلى أن الإيمان ليس قائمًا على صحة المعتقدات، بل على مدى تأثيرها في السلوك، حيث يوضح لنا: فنحن نقوله " عن الإعتقاد الإنساني أنه ينطوي على إيمان أو كفر بقدر ما يحث المؤمنين به على الطاعة أو يبيح لهم الخطيئة والعصيان وعلى ذلك فإن

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص342
[2] المصدر نفسه، ص343

من يصح اعتقاده ويعصى، يكذب إيمانه، وعلى العكس فإن من يخطئ في اعتقاده ويطيع، يصدق إيمانه."[1] هنا يقدم سبينوزا تصورًا عمليًا للإيمان، حيث لا يكون معيار الإيمان الحقيقي هو صحة المعتقدات المجردة، بل مدى انعكاسها على السلوك الأخلاقي للفرد. فهو يرفض الفكرة القائلة بأن الإيمان محصور في التصديق بمقولات دينية معينة، مؤكداً أن القيمة الحقيقية للعقيدة تظهر في الأفعال التي تنتج عنها. فالشخص الذي يحمل معتقدات صحيحة نظريًا لكنه لا يتصرف وفقًا لها، يناقض نفسه، في حين أن من يملك مفاهيم خاطئة لكنه يتصرف وفق مبادئ العدالة والطاعة للقوانين الأخلاقية، يثبت إيمانه الحقيقي من خلال أفعاله.

وبهذا الطرح، يبتعد سبينوزا عن الفهم التقليدي للإيمان كمسألة قبول عقائدي، ويربطه بالأخلاق والممارسة العملية. يمكن اعتبار هذا الموقف امتدادًا لرؤيته الفلسفية التي تجعل من العقل والتجربة أساسًا لتقييم الأفكار، وليس مجرد التسليم بسلطة النصوص الدينية أوالتقاليد. وهو بذلك يفتح الباب أمام رؤية تسامحية للدين، حيث لا يتم الحكم على الأشخاص بناءً على صحة معتقداتهم، بل بناءً على سلوكهم وأثر إيمانهم في تعزيز الخير والتعايش السلمي في المجتمع.

د/ ماهو الايمان واي الناس هم المؤمنون تحديد اركان الإيمان واخيرا الفصل بين الإيمان والفلسلفة:

يُقدِّم سبينوزا تأملات فلسفية عميقة حول طبيعة الإيمان وأهميته في حياة البشر، معرفًا الإيمان بأنه ليس مجرد مجموعة من العقائد الثابتة، بل هو مفهوم يتطلب فهمًا عميقًا يتمحور حول الطاعة لله عن طريق الأعمال الصالحة.

يبدأ في سياق هذا بشرح مفهوم الإيمان ويعرفه على أنه: "يجب ننسب إلى الله بالفكر خصائص يؤدي الجهل بها إلى ضياع الطاعة، على حين أن وجود الطاعة يستتبع وجود هذه الخصائص

[1] المصدر نفسه، ص343

بالضرورة"[1]؛ هذه الجملة تلخص جوهر الفكرة: الإيمان يتطلب فهمًا لصفات الله وكيفية الاستجابة لها من خلال الأعمال. لذلك، يؤكد الكاتب أن " الإيمان دون الأعمال مئات"[2] مما يُسلط الضوء على الأهمية الحاسمة للأفعال التي يجب أن تتبع الإيمان لكي يكون له معنى.

كما يتناول أيضًا مسئولية التأويل وتأثيره على فهم النصوص المقدسة، حيث يقول: "لأننا قبلنا مضمون الكتاب كله بلا تمييز على أنه عقيدة شاملة مطلقة عن الله"[3]. تظهر هنا الإشكالية المتعلقة بكيفية تفسير النصوص الدينية، ويشير إلى أن تنوع الآراء والإنقسام بين الفرق الدينية هو نتيجة لذلك. ورغم أن النصوص مكتوبة بأسلوب يتماشى مع عصور وثقافات مختلفة، يجب أن يكون الهدف منها هو تحقيق الطاعة وليس إثارة النزاعات.

ويُظهر سبينوزا تعبيره عن أهمية الحب والتواصل الإنساني، حيث يرى: "عبادة الله وطاعته لا تكون إلاَ في العدل والإحسان، أي في حب الجار. "[4] هنا، يبرز أهمية القيم التي يتطلبها الإيمان، والتي ينبغي أن تُسهم في تشكيل العلاقات الإنسانية على أساس الحب والعدل. فهو يدعو إلى رؤية تلك القيم كأساس لمجتمعات تسعى للسلام والتضامن.

تتضح الفكرة القائلة بأن الفهم العقائدي للإيمان يجب أن يكون مرنًا، حيث يشير الكاتب إلى أنه " على كل فرد أن يهيئ عقائده في الإيمان على قدر فهمه الخاص"[5]. هذه العبارة؛ تعكس قدرة الأفراد على تخصيص استجابة شخصية للمعتقدات دون المساس بجوهر الإيمان كقيمة أساسية في حياتهم، ومن هنا تأتي فكرة حرية الفكر بشكل واضح.

كما أنه يؤكد التباين بين الإيمان والفلسفة بوضوح، إذ يرى: "غاية الفلسفة هي الحق وحده، وغاية الإيمان كما بينا من قبل هي الطاعة والتقوى وحدهما"[6]. هنا نرى التأكيد على أن هناك

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 347
[2] المصدر نفسه. ص348
[3] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص345
[4] المصدر نفسه، ص351
[5] المصدر نفسه، ص352
[6] المصدر نفسه، ص353

فرق جوهري بين السعي الفلسفي الذي يركز على البحث عن الحقيقة، وبين الإيمان الذي يتمحور حول الطاعة العملية لله.

أخيرًا، ينتهي إلى أن الإيمان شامل يجب أن يركز على القيم الإنسانية الأساسية، مؤكدًا أن " الإيمان الشامل لا يحتوي على أي عقائد يمكن أن تثير خلافاً بين الشرفاء"[1]. هذا الاقتباس يُظهر دعوته للوحدة بين الأديان وضرورة تجاوز الاختلافات العقائدية من أجل بناء مجتمعات تسودها المحبة والعدل.

من خلال تحليلي الفصل، يظهر بوضوح أن الإيمان، في نظر سبينوزا، ليس مجرد ممارسة دينية أو عقيدة نظرية، بل هو رحلة شخصية تتطلب منا جميعًا أن نكون طائعين للعدالة والإحسان، وأن نعمل معًا لبناء مجتمع أفضل

هـ/ في أن اللاهوت ليس خادما العقل وأن العقل ليس خادما للاهوت السبب الذي بدفعنا إلى التسليم بسلطة الكتاب المقدس:

يبين سبينوزا الجدل حول العلاقة بين العقل واللاهوت، حيث يقف على حدود فلسفية دقيقة تعكس تفكيرًا عميقًا حول دور النص المقدس والعقل. يبدأ سبينوزا بتسليط الضوء على النزاع القائم حول ما إذا كان ينبغي للكتاب أن يكون خادمًا للعقل أو العكس. فهو يشير إلى أن الأخذ بأحد هذه المواقف دون الآخر هو أمر خاطئ، فكل منهما له أهميته، بناء عليه وضّحَ: "**إن** من يريد إخضاع الكتاب للفلسفة، فإنه ينسب بخياله إلى الأنبياء أفكاراً لم تخطر ببالهم حتى في الحلم، ويسيء تأويل فكرهم."[2] هنا يعبر سبينوزا عن خطورة التأويل الشخصي للكتاب المقدس، معتبرًا أن ذلك يُفقد النص قيمته الأصلية ويدخله في دوامة من الفهم الخاطئ. في المقابل، يعبر عن انتقاده لأولئك الذين يسعون لإخضاع العقل للنص المقدس بشكل أعمى، حيث يعتبر أن ذلك يحد من قدرة العقل ويعطيه مكانة غير مناسبة.

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص349
[2] المصدر نفسه، ص355

يشير سبينوزا أيضًا إلى الأهمية الفائقة للعقل، إذ يعبر عن استغرابه من فكرة " خضوع العقل للكتاب بالرغم من معارضته له"... يتساءل، "لو كان خضوعاً أعمى فإننا نسلك كالبلهاء، بلا حكمة.""[1] لم ينظر سبينوزا فقط إلى النص المقدس كنص ينبغي أن يُطاع، بل اعتبر أن استخدام العقل لفهمه هو أمر أساسي. ففي وضع الدين كطاعة على العقل، يبدو أنه يتحدث عن أهمية الحفاظ على التفكير النقدي الذي يمكن الأفراد من إدراك الحقيقة.

علاوة على ذلك، يبرز بعض المفاهيم اللاهوتية مثل وحدانية الله، والخصائص التي يُنسب إليها، ويتساءل كيف يمكن تخيل الله غيورًا أو ذا جسد. وجد: "**إن** الكتاب يؤكد صراحة أن الله غيور... وهذا مناقض للعقل."[2] من خلال هذا الطرح، يُظهر سبينوزا مدى أهمية التفسير العقلي للنصوص، حيث يستحضر أمثلة لدحض التصورات غير المعقولة.

تظهر فلسفته بوضوح في قوله: **إن** العقل "هو نور الفكر، والذي بدونه لا يرى إلا أحلاماً وخيالات."[3] يُعبر عن أهمية العقل في توضيح مبادئ الإيمان، والذي يجب ألّا تتعارض مع الحقائق العقلية. على الرغم من اعترافه بسلطة الكتاب، إلاَ أنه يدعو لإفساح المجال لعقل الإنسان ليحقق توازنًا بين الدين والفلسفة.

ينبه سبينوزا إلى أن ما يُعتبر صحيحًا في الكتاب المقدس يجب أن يتماشى بشكلٍ منطقي مع نتائج العقل، لذلك فإن الخلط بينهما يُنتج تناقضات غير مقبولة. إذ يصرّح: "**أود** أن أترك هذا المثل وأذكر مثلاً آخر حتى لا نشطح مع هذا المؤلف."[4] في تطرقه لأمثلة عن تناقضات في الكتاب المقدس، يسعى لإظهار كيف أن عدم الفهم الجيد للنص يمكن أن يؤدي إلى تعارضات غير منطقية.

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص357
[2] المصدر نفسه، ص358 و359
[3] المصدر نفسه، ص360
[4] المصدر نفسه، ص 359-360

في النهاية، يُظهر سبينوزا قناعته بأن العقل والوحي يجب أن يتعاونوا لتحقيق فهم أعمق للدين. يؤكد أن "العقل والإيمان لا يستطيعان العيش في سلام ووئام."[1] يعيد التأكيد على أنه لا ينبغي لأي منهما أن يخضع للآخر، بل يجب أن يساهم كل منهما في توضيح ما يُعتبر حقًا.

من خلال تحليلي الفصل الخامس من الكتاب، يتحقق للقراء فهم عميق للدعوة إلى التفكير النقدي، ويشير سبينوزا إلى ضرورة الفهم العقلاني الذي يُعزز الإيمان بدلاً من أن يضعه ضمن قيود الخضوع الأعمى للنصوص. إذن يُظهر سبينوزا أن الأبعاد الفلسفية واللاهوتية يمكن أن تتناغم دون تمايز وبتوازنٍ متبادل.

4. الدولة والحرية: من الحقوق الفردية إلى حرية الفكر في الدولة المثالية:

أ/ مقومات الدولة، حق الفرد الطبيعي، حق الحكام :

يرى سبينوزا أن الحق الطبيعي ليس مفهومًا قانونيًا أو أخلاقيًا، بل هو تعبير عن القدرة الفعلية للكائنات في الطبيعة. فالإنسان، شأنه شأن أي كائن آخر، يتصرف وفقًا لما تمليه عليه طبيعته، سواء كان مدفوعًا بالعقل أو بالشهوة. لا وجود في الطبيعة لحقوق أسمى تُمنح وفقًا لمبادئ أخلاقية أوعقلية، بل كل فرد له من الحق بقدر ما يملك من القوة لتحقيق مصلحته. وفي هذا السياق: "بقدر ما ننظر إلى الناس على أنهم يعيشون تحت حكم الطبيعة وحدها، نجد أن لهم جميعاً وضعاً واحداً: فمن لم يعرف العقل بعد، أو من لم يحصل بعد على حياة فاضلة، يعيش طبقاً لحق مطلق، خاضع لقوانين الشهوة وحدها شأنه شأن من يعيش طبقاً لقوانين العقل."[2]

لكن هذا الحق المطلق، إذا تُرك دون تنظيم، يقود إلى حالة من الفوضى، حيث تكون القوة هي المعيار الوحيد للحياة الإجتماعية. وبما أن البشر لا يستطيعون العيش بأمان في ظل هذه

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص358

[2] المصدر نفسه، ص368

الحالة الطبيعية، فإن الضرورة تدفعهم إلى إنشاء نظام سياسي يضمن الأمن ويخضع الجميع لقوانين مشتركة. ومع ذلك، فإن هذا الإنتقال لا يعني التخلي عن الحق الطبيعي، بل بالأحرى إعادة تنظيمه داخل إطار سياسي يتيح للناس تحقيق مصلحتهم المشتركة. في هذا السياق، يؤكد سبينوزا: "ولكن ذلك مستحيل ما دام كل فرد يستطيع أن يفعل ما يشاء، وما دام العقل لا يعطي حقوقاً تعلو على حقوق الكراهية والغضب."[1]

الدولة؛ إذن ليست مجرد هيئة قانونية، بل هي امتداد للحق الطبيعي، حيث يتنازل الأفراد عن جزء من سلطتهم المطلقة لصالح سلطة عليا تفرض النظام. الحاكم في هذه المنظومة لا يكون مقيدًا بالقوانين الأخلاقية أو بمبادئ خارجية، بل يستمد سلطته من كونه الجهة القادرة على فرض النظام بالقوة. فيقول سبينوزا: " ومن له سلطة مطلقة تتيح له إجبار الآخرين بالقوة والسيطرة عليهم بإرهابهم بالعقاب الشديد، بحيث يخشاه الجميع، يكون له حق مطلق على جميع الناس."[2] ومع ذلك، فإن هذه السلطة المطلقة لا تعني أن الحاكم يفعل ما يشاء دون حساب، بل إنه، بحكم الضرورة، ملزم بالعمل لصالح المجتمع، لأن سلطته تعتمد على استمرار النظام. فإذا أدار الحكم بطريقة تعسفية تتعارض مع مصلحة الناس، فإن قوته ستضعف، مما يفتح الباب أمام قوى أخرى للاستيلاء على السلطة.

من هنا، يرى سبينوزا أن أفضل أشكال الحكم هو النظام الذي يضمن استقرار السلطة ويحدّ في الوقت ذاته من استبدادها. الديمقراطية، وفقًا لهذا التصور، تمثل الشكل الأمثل للحكم، لأنها تعكس إرادة الأغلبية بدلاً من أن تكون خاضعة لأهواء فرد أو قلة مسيطرة. فيرى: "**الديموقراطية** هي اتحاد الناس في جماعة لها حق مطلق على كل ما في قدرتها."[3] وهذا لا يعني أن الأغلبية لا تخطئ، ولكن طبيعة هذا النظام تقلل من احتمالية التعسف، لأن تعدد الآراء وتوزيع السلطة بين الجماعة يجعل القرارات أكثر انسجامًا مع المصلحة العامة: "فمن

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص370
[2] المصدر نفسه. ص372
[3] المصدر نفسه، ص372

النادر أن تعطي الأغلبية أوامر متناقضة للغاية، لأن فطنتهم وحرصهم على الاحتفاظ بالسلطة يجعلهم يهتمون إلى أقصى حد بالمصلحة العامة."[1]

في النهاية، يقدم سبينوزا تصورًا عقلانيًا للدولة، حيث تكون السلطة امتدادًا للحق الطبيعي ولكن ضمن إطار منظم يحافظ على النظام العام. ليست الدولة كيانًا متعاليًا على الأفراد، بل هي ضرورة عقلانية نابعة من حاجتهم إلى الأمن والإستقرار. وفي الوقت نفسه، فإن نجاحها واستمراريتها يعتمدان على مدى تحقيقها لمصالح الأفراد الذين تخضع لهم. بهذا، تصبح الديمقراطية النموذج الأمثل، لأنها تحقق التوازن بين القوة والشرعية، وتحمي الأفراد من الإستبداد، سواء كان دينيًا أم سياسيًا.

ب/ دولة العبرانيين، مزايا هذه الدولة واسباب انهيارها:

يطرح سبينوزا في هذا الفصل مسألة حدود سلطة الدولة ومدى قدرتها على التحكم الكامل في الأفراد. فهو يرى أن الإنسان لا يمكنه تفويض جميع حقوقه الطبيعية إلى سلطة عليا، لأن هناك أشياء لا تخضع إلا لقوانين الطبيعة البشرية. إذ يؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يُكره على حب من يسيء إليه أو كراهية من يحسن إليه، ولا يمكن إجباره على عدم محاولة التحرر من الخوف. يقول: الإنتطاع إذا أمرت أحد أفراد الرعية بأني كره من يحسن إليه، أو أني أحب من يسيء إليه، أو أني أسمع السبادون أني أشعر بالإهانة."[2]

هذه العبارة تعبر عن حدود القوة السياسية، إذ لا تستطيع أي سلطة أن تتحكم في المشاعر الداخلية للأفراد، حتى لو كانت قادرة على التحكم في أفعالهم.

كما يبين سبينوزا أن الطاعة ليست مجرد فعل خارجي، بل هي فعل داخلي للنفس، وهو ما يجعل السيطرة الحقيقية للدولة تتوقف على مدى قدرتها على توجيه مشاعر الأفراد وجعلهم

[1] المصدر نفسه، ص373
[2] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص383

يحبون أو يكرهون بناءً على ما تريده السلطة. يقول في هذا السياق: فليس ما يميز الرعية هو الباعث على الطاعة، بل هو الطاعة ذاتها."[1]

أي أن ما يهم الدولة ليس سبب الطاعة، بل مجرد تحقيقها، سواء كان ذلك بدافع الخوف أو الحب أو الإعجاب أو الاحترام. يقدم سبينوزا أيضاً رؤية نقدية لمفهوم السلطة المطلقة، مؤكداً أنها مستحيلة، لأن أي حكومة تعتمد في استمرارها على رضا الشعب وطاعته، ومن المستحيل أن تمتلك سلطة مطلقة تجعلها تفعل كلماتها شاء دون أي تهديد من مواطنيها. ويقول: وأظن أني قد برهنت على ذلك بما فيه الكفاية."[2]

مشيراً إلى أن الطاعة لا تتحقق بمجرد فرض الأوامر، بل بقدرة السلطة على إقناع الشعب بقبولها. ينتقل سبينوزا بعد ذلك إلى الحديث عن دولة العبرانيين كنموذج تاريخي لفكرة الحكم الإلهي. يؤكد أن العبرانيين، بعد خروجهم من مصر، لم يكونوا خاضعين لأي سلطة بشرية، وكان بإمكانهم تأسيس أي شكل من أشكال الحكم. لكنه يشير إلى أنهم اختاروا تفويض سلطتهم إلى الله مباشرة، وليس إلى أي حاكم بشري، قائلاً: فقد تخلى العبرانيون عن حقهم الطبيعي وفوضه إلى الله".[3]

بهذا، أصبحت دولتهم دولة دينية بالمعنى الحرفي، حيث لم يكن هناك فرق بين الدين والقانون المدني، وأصبحت الطاعة الله تعني الطاعة للحكومة، لكن سبينوزا ينتقد هذه الفكرة أيضاً، مشيراً إلى أن الشعب سرعان ما فزع من المواجهة المباشرة مع الله، وطلبوا من موسى أن يكون وسيطاً بينهم وبينه، مما أدى عملياً إلى تحويل السلطة من الله إلى شخص موسى، وفي هذا الصدد يقول: " وبهذا الكلام أبطلوا العهد الأول وفوضوا إلى موسى كلية حقهم في التشاور مع الله وتفسير أوامره".[4]

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص384
[2] المصدر نفسه ص385
[1] لمصدر نفسه، ص388
[4] المصدر نفسه، ص389

هنا يرى سبينوزا أن الدولة التي بدأت كمملكة إلهية تحولت إلى دولة بشرية، حيث أصبح موسى هو الحاكم الفعلي الذي يفسر إرادة الله للشعب، مما يشير إلى أن السلطة الإلهية المطلقة غير قابلة للتطبيق عملياً دون وساطة بشرية.

يستخدم سبينوزا التاريخ كمصدر للحكم على الأنظمة السياسية، فيشير إلى الإمبراطورية الرومانية كمثال على دولة لم تستطع حماية نفسها من مواطنيها بالرغم من انتصاراتها العسكرية ضد الأعداء، في هذا السياق قال: " كانت دائماً تنتصر على أعدائها، ولكن هزمها مواطنوها مرات عديدة".[1] وموضحاً أن الخطر الأكبر على الدولة يأتي من الداخل وليس من الخارج. هذه الفكرة تعزز رؤيته بأن السلطة الحقيقية لا تقوم على العنف وحده، بل تحتاج إلى دعم شعبي واقناع نفسي.

يشير سبينوزا أيضاً إلى أن بعض الحكام لجأوا إلى إضفاء صفة الألوهية على أنفسهم لضمان الطاعة، كما فعل الإسكندر الأكبر الذي أقنع شعبه بأنه ابن الإله جوبيتر. وينقل سبينوزا عن كوينتوس كوريتوس قوله: إن الشهرة هي التي تقرر مصير الحروب، وكثيراً ما حل الاعتقاد مكان الحقيقة"[2]؛ هنا يعكس سبينوزا فكرة أن السلطة ليست مجرد قوة مادية، بل تعتمد بشكل كبير على التصورات والمعتقدات التي تبنى في أذهان الناس.

يقدم سبينوزا تحليلا لطبيعة الحكم في دولة العبرانيين بعد وفاة موسى، مبينا كيف كان نظام الحكم ثيوقراطيا، أي يعتمد على سلطة الله المباشرة وليس على أي حاكم بشري مطلق السلطة.

يظهر ذلك من خلال عدة عوامل، أبرزها أن المعبد كان بمثابة "المقر الملكي للدولة"، وأن المواطنين جميعا أقسموا الولاء الله، كما أن اختيار القادة لم يكن يتم إلا من خلال الله، كما في

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص386
[2] المصدر نفسه، ص387

حالة جدعون وشمشون وصموئيل، حيث يقول: كان الله وحده هو الذي يختار عند الحاجة قائداً أعلى"[1] (التثنية 17:15).

ويبرز سبينوزا أن هذا النظام كان خالياً من ظهور طغاة بين الحكام، حيث لم يكن للقادة سلطة مطلقة، بل كانت مقيدة بتفسير الشريعة من قبل اللاويين، الذين لم يكن لهم أي دور سياسي أو ملكية خاصة، بل اقتصر نفوذهم على تفسير القوانين الإلهية. وهذا يعزز نظرية سبينوزا بأن الطغاة يستغلون سلطتهم في تفسير القوانين لتحقيق مآربهم الخاصة، بينما في دولة العبرانيين كان هناك ركيز ديني يمنع ذلك، حيث يقول سبينوزا: "لأن حق تفسير الشريعة كان متروكاً بأسره للاويين وحدهم الذين لم يكونوا يشاركون في أي تنظيم سياسي""[2].

لكن رغم هذه القوة الظاهرة، كان هناك ضعف داخلي كامن في هذا النظام نفسه، وهو ما جعله غير قادر على الاستمرار. فالسبب الرئيسي لانهيار الدولة العبرية لم يكن، كما يقال، عصيانهم الفطري، بل كان نتيجة لنواقص متأصلة في قوانينهم وعاداتهم. فالقوانين التي وضعت بدافع الغضب الإلهي، وفق تعبير حزقيال: أعطيتهم رسوما غير صالحة وأحكامًا لا يحيون بها."[3]

لم تكن في مصلحة الشعب بقدر ما كانت عقوبات فرضها الله عليهم، مما جعل الدولة قائمة على الخوف أكثر من كونها قائمة على أسس متينة للإستمرار كان انهيار الدولة العبرية نتيجة طبيعية للانقسامات الداخلية التي غذتها القوانين نفسها التي كان يفترض أن تضمن استقرارها.

فبدلاً من أن تكون هذه القوانين وسيلة للتنظيم، تحولت إلى سبب في الفتن، حيث أدت إلى التمييز بين المواطنين وساهمت في نشوء صراعات بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. وكان من المستحيل أن يستمر هذا النظام إلى الأبد، لأن الأساس الذي قام عليه لم يكن قائماً

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص397
[2] المصدر نفسه ص398
[3] المصدر نفسه، ص405

على المصلحة العامة، بل على مجموعة من القوانين التي فرضت كرد فعل على أخطاء الماضي، بدلاً من أن تكون تخطيطاً محكماً لمستقبل مستدام.

يرى سبينوزا أن الدولة العبرية، رغم تميزها ببعض الخصائص التي ضمنت لها البقاء لفترة، إلا أنه لم تكن نموذجاً يمكن الاقتداء به. فقد تأسست على مبادئ لم يكن من الممكن استمرارها، وعندما حاول الحكام تغييره للحفاظ على السلطة، لم يتمكنوا من تحقيق ذلك دون الدخول في صراعات داخلية أدت إلى انهيار الدولة في النهاية.

ج/ بعض النظريات السياسية في دولة العبرانيين:

يقدم سبينوزا في هذا الفصل قراءة نقدية لتجربة دولة العبرانيين، مستخلصًا منها دروسًا سياسية تتجاوز سياقها التاريخي المحدود. فهو يبدأ بالإشارة إلى أن النظام الثيوقراطي، رغم استقراره في سياقه الخاص، لا يمكن تعميمه في ظروف أخرى، لأن تفويض السلطة إلى الله يتطلب ميثاقًا صريحًا معه، كما فعل العبرانيون، وليس مجرد رغبة بشرية

" فلو أراد بعض الناس تفويض حقهم الله وجب عليهم عقد ميثاق صريح مع الله كما فعل العبرانيون من قبل". [1] هنا يتجلى موقف سبينوزا الناقد لأي شرعية سياسية قائمة على سلطة دينية غير محددة بمعاهدة أو اتفاق واضح.

ينتقد سبينوزا أيضًا تدخل القائمين على الشؤون الدينية في الحكم، إذ يرى أن ذلك يؤدي إلى الفساد والإستبداد. ففي الدولة الأولى، لم يكن للكهنة سلطة إصدار القرارات، بل كانوا مجرد وسطاء بين الشعب والقانون، مما حدَّ من طموحاتهم السياسية " ففي الدولة الأولى كان من المستحيل إصدار أي قرار باسم الحبر، لأن الحبر لم يكن له حق إصدار القرارات"... على العكس من ذلك..." بمجرد أن امتلك الأحبار سلطة التصرف في شؤون الدولة، سارعوا إلى

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص411

اغتصاب السلطة وتوسيع نفوذهم، مما أدى إلى ظهور الفرق الدينية والنزاعات بين الجماعات " ومنذ ذلك الحين بدأ الدين في التدهور حتى أصبح مجرد خرافة مشئومة""[1]. هذا التحليل يعكس رؤية سبينوزا بأن الدين، عندما يتحول إلى أداة للسلطة، يفقد جوهره الروحي ويصبح وسيلة للهيمنة والخداع.

من جهة أخرى، يشير سبينوزا إلى دور الأنبياء في زعزعة استقرار الدولة، إذ كانوا يتمتعون بحرية واسعة في انتقاد الحكام والمجتمع، مما زاد من حدة الصراعات الداخلية "وهم مجرد رعايا عاديين – دفعوا الناس إلى التطرف أكثر مما دفعوهم إلى الصلاح نتيجة للحرية التي استباحوها لأنفسهم"[2]. ويُبرز هنا التناقض بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، حيث كان الملوك يسعون إلى فرض النظام، بينما كان الأنبياء يشعلون المعارضة، حتى ضد الملوك الأتقياء.

كما يُلاحظ سبينوزا أن النظام الملكي أدى إلى تفاقم النزاعات الأهلية، حيث تحولت الحروب من وسيلة للدفاع عن الحرية إلى صراع من أجل العظمة الشخصية " لم تعد الحرب تشن من أجل إقرار السلام والدفاع عن الحرية، بل من أجل العظمة"[3]. فبينما كان الحكم الشعبي يوفر فترات طويلة من الاستقرار، أدى الحكم الملكي إلى حروب مستمرة وانقسامات دموية، مما أضعف الدولة وجعلها عرضة للسقوط.

ويخلص سبينوزا إلى مجموعة من المبادئ السياسية المهمة، منها ضرورة فصل الدين عن الدولة، لأن تدخل القائمين على الدين في السياسة يؤدي إلى الفساد والإستبداد " من الخطورة على الدين وعلى الدولة على السواء إعطاء من يقومون بشؤون الدين الحق في إصدار القرارات"[4]. كما يؤكد أن القانون الإلهي يجب ألا يُبنى على تأويلات فلسفية متغيرة، لأن ذلك

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص413 ص412
[2] المصدر نفسه، ص414
[3] المصدر نفسه. ص415
[4] المصدر نفسه، ص416

يؤدي إلى استبداد فكري وقمع الحريات " من الخطورة أن نجعل القانون الإلهي معتمدًا على المذاهب التي تقوم على النظر البحث".[1]

وفي النهاية، يعارض سبينوزا فرض نظام ملكي على شعب اعتاد الحكم الذاتي، لأن ذلك سيؤدي حتمًا إلى الإستبداد والإضطرابات "فمن ناحية لا يستطيع الشعب أن يتحمل سلطة قوية كهذه، " ومن ناحية أخرى لا تسمح السلطة الملكية مطلقًا بوجود تشريع آخر".[2] لكنه في الوقت ذاته يحذر من الفوضى الناتجة عن اغتيال الملوك، حيث يرى أن الشعب الذي تعود على الملكية لن يقبل بسهولة حكمًا أقل قوة، مما يدفع الحاكم الجديد إلى أن يصبح طاغية بدوره.

من خلال هذا التحليل، يكشف سبينوزا عن رؤية سياسية تقوم على العقلانية والفصل بين الدين والسياسة، مع التركيز على أهمية الإستقرار السياسي القائم على توازن السلطات، لا على الحكم المطلق، سواء كان دينيًا أو ملكيًا.

د/ ان الطاعة الحقيقة لله تحض على الاتفاق بين ممارسة للعبادة الدينية وبين سلامة الدولة:

يعالج سبينوزا في هذا الفصل العلاقة بين الدين والسياسة، حيث يؤكد أن السلطة الحاكمة هي الجهة الوحيدة المخولة بتنظيم الشؤون الدينية في المجتمع. بالنسبة له، لا يمكن للدين أن يمتلك قوة القانون إلا من خلال الدولة، وهو ما يعبر عنه بقوله: إن الدين لا تكون له قوة القانون إلا بإرادة من لهم الحق في الحكم"[3] هذه الفكرة تندرج ضمن رؤيته السياسية العامة التي تنزع عن الدين أي سلطة مستقلة، وتحصره في إطار سياسي محدد. ينطلق سبينوزا من تصور طبيعي للإنسان، حيث يرى أن الأفراد في حالتهم الطبيعية يحتكمون فقط إلى قدرتهم

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص416
[2] المصدر نفسه، ص417
[3] المصدر نفسه، ص422

الفعلية، أما مفاهيم العدل والظلم فلا معنى لها إلا داخل مجتمع منظم سياسيا. لهذا السبب، فإن قوانين الدين لا تصبح ملزمة إلا عندما تتبناها الدولة، فيقول: لكي تكون التعاليم العقل قوة القانون، كان لا بد للفرد من أن يتخلى عن حقه الطبيعي، وذلك بتقويضه إياه إلى الجماعة، أو إلى بعض الناس، أو إلى فرد واحد"[1]؛ هنا يظهر أن سبينوزا يدمج الدين في بنية الدولة، مما يعني أن السلطة السياسية هي التي تحدد إطار الممارسات الدينية العامة.

يستدل سبينوزا بتاريخ العبرانيين ليبين أن الدين لا يستطيع فرض نفسه كقانون خارج إطار الدولة. فعندما كانت لهم دولة مستقلة، كان الدين يتمتع بقوة القانون، ولكن بعد سقوطهم تحت حكم ملك بابل، فقد الدين تلك القوة، لأن السلطة السياسية أصبحت بيد حاكم أجنبي: " لم يعد للدين الموحى به قوة القانون بعد انهيار دولة العبرانيين." [2]

هذا الطرح يعزز فكرته الأساسية بأن القوانين الدينية ليست مطلقة أو مستقلة، بل هي خاضعة للظروف السياسية. علاوة على ذلك، يؤكد سبينوزا أن التقوى الحقيقية لا تتعارض مع طاعة الدولة، بل على العكس، فطاعة الدين يجب أن تنسجم مع مصالح الدولة العليا، حيث يقول: لا يمكن لأحد أن يطيع الله حقا إلا إذا اتفق سلوكه الديني مع المصلحة العامة، وأطاع جميع قرارات السلطة العليا."[3]

بهذا المعنى، تصبح الدولة المرجع الوحيد في تنظيم المجال الديني، مما يلغي أية سلطة دينية مستقلة.

كما يشير سبينوزا إلى أن الاستقرار السياسي هو شرط أساسي لممارسة الدين، حيث يرى أن انهيار الدولة يؤدي. إلى الفوضى والفساد الأخلاقي، فيقول: لولا زالت الدولة لكان معنى ذلك

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص423
[2] المصدر نفسه، ص424
[3] المصدر نفسه، ص426

زوال كل شيء خير، وضياع الأمن في كل مكان."[1]؛ وهو ما يعكس تصوره للدين بوصفه أداة لتدعيم النظام الاجتماعي وليس مصدرا للتحدي.

ويخلص سبينوزا إلى أن تفسير النصوص الدينية يجب أن يكون من صلاحيات السلطة السياسية، وليس رجال الدين، وجد انه: يجب أن نسلم بان القانون الإلهي أي منظم الشؤون الدينية يعتمد مباشرة على مشيئة السلطة العليا الحاكمة"[2].

في النهاية، يقدم سبينوزا تصورًا واضحًا للدين باعتباره خاضعًا بالكامل للسياسة، فالأوامر الإلهية لا تمتلك سلطة تنفيذية إلا بقرار من الدولة، مما يجعل الله نفسه – وفق هذا المنظور – يحكم البشر من خلال السلطة السياسية القائمة.

هـ/ حرية الفكر والتعبير مكفولة لكل فرد في الدولة الحرة:

يطرح سبينوزا في هذا الفصل موقفًا حاسمًا بشأن حرية التفكير والتعبير، معتبرًا أنها حق أساسي لا يمكن للدولة أن تسلبه من الأفراد، حتى لو امتلكت السلطة على أفعالهم. يبدأ سبينوزا بتوضيح أن العقول لا تخضع للسيطرة مثل الألسنة، مما يعني أن أي محاولة لفرض رأي معين بالقوة ستقود إلى العنف والاضطهاد، بدلًا من تحقيق الاستقرار: " لو كان من السهل السيطرة على الأذهان مثلما يمكن السيطرة على الألسنة، لما وجدت أية حكومة نفسها في خطر، ولما احتاجت أية سلطة لاستعمال العنف"[3]. هنا، يلفت النظر إلى استحالة إخضاع التفكير الفردي بالقوة، لأن القدرة على الحكم والتفكير حق طبيعي غير قابل للتنازل.

ويميز سبينوزا بين أشكال الحكم المختلفة، مشيرًا إلى أن الأنظمة الديمقراطية أكثر تقبلًا لحرية التفكير مقارنة بالحكم الملكي: "**فإذا** كان من الممكن تصور عبودية الأذهان في النظام الملكي،

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص425
[2] المصدر نفسه، ص431
[3] المصدر نفسه. ص435

فإن هذا الاحتمال مستبعد تماما في نظام الحكم الديمقراطي"[1]؛ ذلك لأن الديمقراطية، في جوهرها، قائمة على مشاركة الأفراد في السلطة، مما يجعل من غير المنطقي حرمانهم من التفكير المستقل.

ويقدم سبينوزا مفهومًا جديدًا للسلطة، إذ يرى أنها ليست مطلقة، بل تتحدد بقدرتها على تحقيق مصلحتها الخاصة، وليس فقط بممارستها العنف والإكراه: "إننا نسلم بأنها تستطيع شرعًا الحكم بأعنف الطرق، وإصدار أحكام الإعدام على المواطنين لأتفه الأسباب، ولكن الكل مجمعون على أن هذا الأسلوب في الحكم يعارض العقل السليم"[2]. هنا، يتبنى موقفًا عمليًا، إذ أن الدولة التي تسعى إلى قمع الأفكار ستجد نفسها في مواجهة دائمة مع مواطنيها، مما قد يؤدي إلى اضطراب داخلي.

ويؤكد سبينوزا على التمييز بين حرية التفكير وحرية الفعل، حيث يمكن للفرد أن يفكر بحرية بل وحتى يعبر عن رأيه، طالما أنه لا يتحول إلى أفعال تهدد استقرار الدولة: "ولكن المرء يستطيع أن يفكر وأن يصدر حكمه، ومن ثم يستطيع الكلام أيضًا، بحرية تامة، بشرط ألا يتعدى حدود الكلام أو الدعوة، وأن يعتمد في ذلك على العقل وحده"[3]. هنا، يضع سبينوزا شرطًا مهمًا: حرية التفكير يجب أن تمارس في إطار الحوار العقلاني، وليس عبر التحريض أو العنف.

ثم يتوسع في طرحه، مؤكدًا أن الدولة المثلى ليست تلك التي تفرض الرأي الواحد، بل التي تتيح للأفراد حرية التفكير والتعبير، لأن ذلك يقود إلى مجتمع أكثر استقرارًا وعدالة: " فالحرية إذن هي الغاية الحقيقية من قيام الدولة"[4]. أي أن الدولة، بدلًا من أن تكون أداة للقمع، ينبغي أن توفر بيئة تضمن حرية الفكر باعتبارها وسيلة لتحقيق السلم الاجتماعي.

---

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص436
[2] المصدر نفسه، ص436
[3] المصدر نفسه، ص437
[4] المصدر نفسه، ص437

وفي ختام الفصل، يشير سبينوزا إلى المخاطر الكامنة في محاولة فرض رأي واحد بالقوة، إذ يؤدي ذلك إلى نفاق اجتماعي، حيث يخفي الأفراد قناعاتهم الحقيقية، مما يضعف الثقة داخل المجتمع: " ففي هذه الحالة لن يحدث مطلقًا أن تتفق جميع أفكارهم مع أفكار السلطة العليا"[1]. كما يحذر من أن القوانين القمعية لا تضر المجرمين بقدر ما تستهدف أصحاب العقول المستقلة: " فإن هذه القوانين الموضوعة لإدانة الآراء لا تنطوي على أية فائدة، لأن من يؤمنون بصحة الآراء لا يمكنهم إطاعة هذه القوانين"[2]؛ يظهر سبينوزا هنا كمدافع عقلاني عن حرية الفكر، مستندًا إلى مبدأ أساسي: الدولة القوية ليست تلك التي تفرض آراءها بالقوة، بل تلك التي تسمح للأفراد بالتفكير بحرية، لأن ذلك يعزز الإستقرار السياسي والإجتماعي بدلًا من تهديده.

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص440
[2] المصدر نفسه، ص440_441

الخلاصة:

يتضح لي من خلال هذا الفصل أن سبينوزا في "رسالة في اللاهوت والسياسة" يقدم مشروعًا فلسفيًا جريئًا يهدف إلى تحرير الفكر السياسي والديني من القيود التقليدية. من خلال التحليل الدقيق لبنية الكتاب ومضامينه، يتبيّن أن سبينوزا يسعى إلى إعادة تنظيم العلاقة بين الدين والسياسة على أسس عقلانية، تؤكد على ضرورة استقلال السلطة السياسية عن التأويلات الدينية، وتدافع عن حرية الفرد في التفكير والتعبير.

لقد كشف الفصل عن كيفية توظيف سبينوزا المنهج العقلي لفهم الظواهر الدينية والتاريخية، من خلال النقد النبوة، والمعجزة، والإيمان، وإعادة تفسير النصوص المقدسة بمنهج لغوي وتاريخي. كما أظهر الطرح الفلسفي للكاتب أهمية الحرية في قيام دولة مستقرة، عادلة، وعقلانية،

قادرة على حماية حقوق مواطنيها دون تدخل ديني. وبذلك، فإن "رسالة في اللاهوت والسياسة" ليست مجرد كتاب في النقد الديني، بل تمثل دعوة صريحة إلى بناء نظام سياسي عقلاني، يقوم على قيم الحرية والتسامح، ويضمن التعايش داخل المجتمع بعيدًا عن الصراعات العقائدية.

الخاتمة

الخاتمة

يستخلص هذا البحث أن الخلط بين اللاهوت والسياسة يشكل آلية مركزية للاستبداد، إذ يؤسس الدين فيه لسلطة سياسية فوقية تُقيّد حرية الفكر وتحد من العقلانية السياسية. ومن خلال تحليل رسالة سبينوزا في اللاهوت والسياسة، يتضح أن الدين في سياقه السياسي يفقد طابعه الأخلاقي ويصبح أداة قمع تُبرر الاستبداد.

في المقابل، يطرح سبينوزا ضرورة الفصل الكامل بين الدين والسياسة، حيث تستند السياسة إلى العقلانية والمصلحة العامة، ويُحصر الدين في نطاق الأخلاق الفردية، بلا سلطة تنفيذية مستقلة. هذه الرؤية تؤسس لشرعية سياسية عقلانية تُبعد الدين عن السلطة التنفيذية، وتؤمن حرية الفكر واستقرار الدولة، مما يجعل الفصل بين اللاهوت والسياسة شرطًا حتميًا لبناء مجتمع حر وعادل.

ويقدم سبينوزا تصورًا جريئًا للدين باعتباره خاضعًا بالكامل للسياسة، فالأوامر الإلهية – في منظور عقلاني صرف – لا تمتلك سلطة تنفيذية مستقلة، بل لا تطبق إلا بقرار من الدولة. وبهذا، فإن الله نفسه، وفق هذا التصور، لا يحكم البشر إلا من خلال السلطة السياسية القائمة. هذه الفكرة التي تضع الدولة كمصدر وحيد للسلطة، تعني أن الدين لا يملك سلطة إلزام إلا من خلال السياسة، ما يعيد ترتيب العلاقة بين المقدس والمدني ويمنح الدولة شرعية عقلانية لا تستند إلى الخرافة أو التأويل الديني المتعدد.

لقد اعتبر سبينوزا هذا الفصل شرطًا ضروريًا لضمان حرية الفكر، والسلم الأهلي، وبناء دولة عادلة لا يحكمها رجال الدين بل قوانين العقل. بناء

عليه، يمكن القول إن هذا التصور يمثل الإجابة الجوهرية عن التساؤل المطروح في المقدمة حول علاقة اللاهوت والسياسة بالاستبداد.

وفي ختام هذا البحث، نؤكد أن فكر سبينوزا يفتح آفاقًا فلسفية واسعة لمقاربة العلاقة بين الدين والسياسة في السياقات الحديثة والمعاصرة، سواء في الفكر الغربي أو في مجتمعاتنا العربية التي لا تزال تعيش هذا الصراع بأشكال مختلفة. كما يمكن أن يشكل مشروع سبينوزا منطلقًا للدراسات المقارنة مع مفكرين نقدوا العلاقة بين السلطة والمقدّس، مما يمنح الباحثين إمكانيات جديدة لاستئناف النقاش في ضوء معطيات ثقافية وسياسية معاصرة.

ومن هذا المنطلق، تبقى الأسئلة مفتوحة تتطلب استكمال البحث والتفكير: **كيف يمكننا اليوم، في ظل التحديات المعاصرة السياسية والدينية، الاستفادة من فكر سبينوزا لإعادة تأسيس مفهوم الحرية والسلطة، وتجاوز أزمات العلاقة بين الدين والسياسة؟**

قائمة المصادر والمراجع

1- قائمة المصادر:

1- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مراجعة. فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، (د.ط)، 2008.

2-باروخ سبينوزا، علم الأخلاق تر جلال الدين سعيد، مراجعة جورج كتوره، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،2009.

2- قائمة المراجع:

1- جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دارالطليعة بيروت، ط3، 2017.

2- فؤاد زكريا: سبينوزا، مؤسسة هنداوي، القاهرة، د ط 1998.

3_على فهمي حشيم، الفلسفة والسلطة ومقالات أخرى، الدار الجماهيرية للتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1999.

4- منذر شباني، سبينوزا واللاهوت، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب. 2009.

5- محمد بن ابراهيم الحمد، كتاب مصطلحات في كتب العقائد، دار بن خزيمة للنشر، الطبعة الأولى.

6- محمد على منصور مزروعه، العقل وأوهامه عند الجاحظ والغزالي وفرنسس بيكون، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين – القاهرة.

7- نورة عابد، مفهوم الحق في الفلسفة الحديثة، مخبر الفلسفة وتاريخها – جامعة وهران.

3- قائمة الموسوعات والقواميس:

-بدوي عبد الرحمان، موسوعة الفلسفة، ج 1، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 1984.

2_جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، الجزء الأول، 1982.

4- قائمة المجلات والدوريات:

1- مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، المجلدا (1) العدد 03، 2023.

5- قائمة المذكرات والرسائل الجامعية:

1- رحالة عباسية، الحرية والسلطة السياسية في فلسفة سبينوزا،مذكرة ماجستير، جامعة وهران، اشراف ارزقي بن عومر،2014-2015.

2- ابتسام زروقي، السلطة الروحية والسلطة السياسية عند باروخ سبينوزا،مذكرة ماستر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة 2019-2020، إشراف رياض طاهير.

3- ليس صوفية،طيار نور الهدى،الفلسفة السياسية عند باروخ سبينوزا، مذكرة ماستر، 2023-2024، جامعة 8 ماي 1945قالمة، اشراف كافي فريدة.

4- قانة مسلمة، علاقة العقل بالدين عند ديكارت، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي، جامعة قاصدي مرياح ورقلة،إشراف بن قويدر عاشور ،2014/2015.

6- قائمة المواقع الالكترونية:

1-https://www.almaany.com/ar.02/03/2”25/.23:25pm
2-https://mawdoo3.com/17-05-2025/22 :27pm
3-Plateforme pédagogique de l’Université Sétif2
https://cte.univ-setif2.dz 22: Am03/2025-03-04 (محاضرات غير منشورة فلسفة توما الإكويني)

قائمة الفهارس

فهرس الأعلام

الأعلام
أبراهام بن مئير بن عزرا ((Abraham ibn Ezra
إيمانويل كانط ((Immanuel Kant
بليز بسكال ((Blaise Pascal
توماس هوبز ((Thomas Hobbes
توما الإكويني ((Thomas Aquinas
جان جاك روسو ((Jean-Jacques Rousseau
جون لوك ((John Locke
جيوردانو برونو ((Giordano Bruno
حسن علي بن محمد الجرجاني ((Ali ibn Muhammad al-Jurjani
رينيه ديكارت ((René Descartes
غيرهارد يوهان فوسيوس ((Gerhard Johann Vossius
غوتفريد فيلهلم ليبنتز ((Gottfried Wilhelm Leibniz
فرانسوا ماري أرويه (فولتير) ((François-Marie Arouet – Voltaire
كريستيان هويغنز ((Christiaan Huygens
ميشال فوكو ((Michel Foucault
موسى بن ميمون ((Moses Maimonides
أوغسطينوس هيبوني ((Saint Augustine of Hippo
غيورغ فيلهلم فريدريش هيغل ((Georg Wilhelm Friedrich Hegel

فهرس المصطلحات

المفاهيم باللغات الثلاث: العربية - الفرنسية – الإنجليزية:

المصطلح بالعربية	بالفرنسية	بالإنجليزية
اللاهوت	Théologie	Theology
الدين	Religion	Religion
الجوهر	Substance	Substance
النبوة	Prophétie	Substance
المعجزة	Miracle	Miracle
العقل	Raison	Reason
الفهم التاريخي للنصوص	Lecture historico-critique	Historical-critical interpretation
الإصلاح الديني	Réforme religieuse	Religious reform
السلطة الرمزية	Pouvoir symbolique	Symbolic power
السياسة	Politique	Politics
الحرية	Liberté	Freedom
الحق	Droit	Right
السلطة	Pouvoir	Power
الدولة	État	State
السيادة	Souveraineté	Sovereignty
الإرادة الحرة	Libre arbitre	Free will
العدالة	Justice	Justice
الطبيعة البشرية	Nature humaine	Human nature
المصلحة العامة	Intérêt commun	Common interest
الوعي الزائف	Fausse conscience	False consciousness
الضرورة الطبيعية	Nécessité naturelle	Natural necessity
الفرد	Individu	Individual
الحكم الاستبدادي	Despotisme	Despotism
الإكراه الفكري	Contrainte intellectuelle	Intellectual coercion
السلام المدني	Paix civile	Civil peace

فهرس المحتويات

الاهداء

الشكر

المقدمة:..... ص أ

الفصل الأول: الإطار التاريخي والفكري لفلسفة سبينوزا:..... ص08

مدخل الفصل الأول:..... ص 09

المبحث الأول: السياقات الفلسفية والاجتماعية:..... .....ص10

أ. باروخ سبينوزا وأهميته الفلسفية:.....ص 11

1. حياته ونشأته:.....ص11

2. أهمية سبينوزا الفلسفية:.....ص15

3. أعماله وتأثيره على الفلسفة الحديثة:.....ص17

ب. السياقات الاجتماعية والسياسية والدينية:.....ص 19

1. السياق الاجتماعي في هولندا في القرن السابع عشر:.....ص20

2.الوضع الاجتماعي في امستردام وتنوعه الديني والثقافي:.....ص21

3. الصراعات الدينية و تأثيرها على فكر سبينوزا:.....ص23

4. تأثير هذه السياقات على فلسفة سبينوزا:.....ص25.

السياقات الدينية لفلسفة سبينوزا:.....ص26

- موقفه من اليهودية.....ص26
- موقفه من المسيحية ص30

المبحث الثاني: قراءة في المفاهيم الأساسية:.....ص35

أ. قراءة في المفاهيم: العقل، الدين، اللاهوت، السياسة، الحرية:.....ص36

ب. تأثير اللاهوت على السياسة:.....ص54

1. الخلط بين الدين والدولة:.....ص55

2. مساوء التسلط ورجل الدين :.....ص56

3. مساهمة الاهوت في الصراعات الداخلية:.....ص57

خلاصة الفصل الأول:.....ص58

الفصل الثاني: قراءة في كتاب "رسالة في اللاهوت والسياسة" لسبينوزا.....ص59

مدخل الفصل الثاني:.....ص60

المبحث الأول: قراءة في الشكل والمضمون......ص61

أ. من ناحية الشكل:.....ص62

ب. من ناحية المضمون:.....ص66

المبحث الثاني: القراءة الفلسفية للكتاب:.....ص72

تحليل البنية والأفكار الفلسفية في الكتاب.....ص72

1. من النبوة إلى الشعائر الدينية:.....ص73

2. المعجزات ونقد الاسفار المقدسة من الخوارقإلى التحليل العقلاني.....ص86

3. العقل والإيمان: من الإيمان البسيط إلى المقاربات بين اللاهوت والفلسفة.....ص100

4. الحرية والدولة: من الحقوق الدينية إلى حرية الفكر والردة المثالية.....ص114

خلاصة الفصل الثاني:.....ص127

الخاتمة:.....ص128

قائمة المصادر والمراجع:.....ص131

قائمة الفهارس:.....ص133

الملاحق.....ص138

الملاحق

ملخص :

هل يمكن أن يكون الدين خاضعا للدولة؟ وهل يجوز أن تقيد سلطة النصوص الدينية بالعقل؟ في هذه المذكرة، نخوض رحلة فكرية في أحد أكثر النصوص الفلسفية جرأة وإثارة للجدل: رسالة في اللاهوت والسياسة لباروخ سبينوزا . نتتبع السياقات التي ولد فيها هذا العمل حيث كانت الحرية الفكرية مهددة، والدين يستعمل أداة للهيمنة نغوص في مفاهيم العقل، النبوة، المعجزة الحرية والدولة، لنكشف كيف يرى سبينوزا أن خلاص الإنسان لا يكون بالإيمان الأعمى، بل بالتحرر من الخوف والخ ارفة، وبالعقل الذي ينظم الشأن العام. يدعونا هذا العمل الفلسفي إلى إعادة التفكير في العلاقة بين السلطة الدينية والسياسية، ويطرح سؤالا جوهريا : كيف نحمي حرية التفكير دون تقويض استقرار الدولة؟ إنها دعوة لفهم الدين خارج سلطة الكهنة ولتصور دولة لا يحكم فيها باسم الإله، بل باسم العقل والمصلحة العامة.

Résumé :

La religion doit-elle obéir à l’État ? Et la voix de Dieu peut-elle être soumise à la raison ? Ce mémoire propose une plongée fascinante dans l’une des œuvres les plus audacieuses et controversées de la philosophie moderne Le Traité .théologico-politique de Baruch Spinoza

Dans un contexte où la pensée libre était étouffée et la religion utilisée comme instrument de pouvoir, Spinoza ose remettre en question l’autorité religieuse. À travers les concepts de prophétie, miracle, foi, raison et liberté, il esquisse une vision du monde où la paix sociale passe par un État rationnel, garant de la .liberté de penser.

Ce travail n'est pas seulement une étude d'un texte ancien, mais une invitation urgente à repenser la place du sacré dans nos sociétés modernes. Une réflexion qui interroge : peut-on vraiment séparer Dieu et le pouvoir sans menacer l’ordre ? Spinoza répond : non seulement on peut, mais on doit.

Abstrct :

Should religion submit to the state ? Can divine authoritybelimited by humanreason ? This thesis explores one of the boldest and most provocative

works in modern philosophy : The Theological-Political Treatise by Baruch Spinoza. Written in a time when free thoughtwaspersecuted and religion waswielded as a tool of domination, Spinoza dared to challenge traditionaltheology. Throughhisanalysis of prophecy, miracles, faith, reason, and freedom, helays the foundation for a rational state thatprotectsfreedom of thoughtwithoutcollapsinginto chaos. One This is not just a historicalstudy, but a timelyreflection on the balance between the sacred and the political. It asks a vital question : Can weseparate religion from power and stillpreserveorder ? For Spinoza, the answerisclear not onlyisit possible, itis essential.

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس-مستغانم-

كلية العلوم الاجتماعية

تصريح شرفي خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز البحث

أنا الممضي أدناه،

الطالب(ة): ....**شفراني صابرينة**..... رقم التسجيل الجامعي:...**201937029941**...

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم: ...**110001083004530004**.. والصادرة بتاريخ:**27-03-2014**

عن.... **بلدية مستغانم مستغانم**..

المسجل ب**كلية العلوم الاجتماعية / قسم ...علوم اجتماعية**.....

شعبة ..... **فلسفة**...../ التخصص ..... **فلسفة عامة**.....

والمكلف بإنجاز مذكرة ماستر بعنوان: .....

اشكالية اللاهوت و السياسة لدي سبينوزا...

.....

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات العلمية والنزاهة الأكاديمية المطلوبة في إنجاز البحث ، وأتحمل المسؤولية الشخصية عن كل المحتوى المتضمن في البحث المذكور أعلاه .

التاريخ: **2025/06/03**

إمضاء المعني

* ملحق القرار الوزاري رقم 933 المؤرخ في 28 جويلية 2016 الذي يحدد القواعد المتعلقة بالوقاية من السرقة العلمية ومكافحتها.

PDF Scanner ACE Scanner

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

كلية العلوم الاجتماعية

شعبة الفلسفة

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في الفلسفة تخصص فلسفة عامة

إشكالية اللاهوت والسياسة لدى سبينوزا

دراسة في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة

إعداد الطالبة:

شقراني صابرينة

إشراف الأستاذة:

د. بداني حسنية

السنة الجامعية: 2025/2024

PDF Scanner ACE Scanner